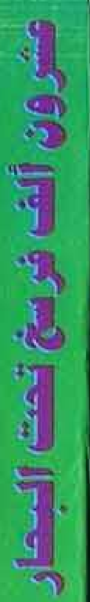
روايات عالمية للناشئة

عشرون ألف فرسخ تحت البحار

جول فيرن

RABIE



جول فيرن



9

عشرون ألف فرسخ تحت البحار

جول فيرن

كانت السفن التجارية تختفي في عُرض المحيطات ، أو تتحطم وتغرق ، لا يعرف أحد سبب ذلك . ثم تبين أن وحشاً بحرياً لا مثيل له وراء هذه الجرائم .. وتنطلق إحدى السفن الحربية لمطاردته ، فماذا تكتشف؟

صدر من هذه المجموعة :

1 ـ الذئب الأبيض
2 ـ توم سوير
3 ـ الهندي الشجاع
4 ـ مذكرات حمار
5 ـ نداء الغابة
6 ـ روبنسون كروزو
7 ـ هايدي
8 ـ حكايات أندرسون
9 ـ عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10 ـ ريمي الصغير
11 ـ نساء صغيرات
12 ـ جزيرة الكنز
13 ـ حول العالم في ثمانين يوماً
14 ـ كوخ العم توم
15 ـ شرلوك هولمز
16 ـ مغامرات الكابتن فراكاس
17 ـ حرب النار
18 ـ الحوت الأبيض
19 ـ كتاب الأدغال
20 ـ أحدب نوتردام
21 ـ اللورد الصغير
22 ـ الشيطان الصغير
23 ـ أحزان صوفي
24 ـ فتيات مثاليات

تصميم الغلاف : هيثم فرحات



عشرون ألف فرسخ تحت البحار

(جول فيرن)

1905 -1828

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشـــراف : محمـــد كمـــال

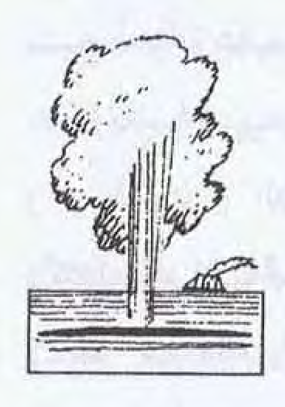
إخراج فني : م. نشوان خريط



الجزء الأول

الفصل الأول

الحيوان البحري



جرت في سنة 1886 حادثة غير عادية شغلت العاملين في البحر ، من قباطنة وضباط وتجار ، لأنها تتعلق بهم خاصة . وذلك أن عدداً من السفن قد صادفت في أعالي البحار شيئاً ضخماً يتنقل بسرعة وقوة لا سابقة لهما . وهو حوت أو حيوان بحري لم يعرفه العلماء من قبل ، ولا يمكن اعتباره من تهاويل الخيال ، لأن التقارير اليومية قد اتفقت على ملاحظة هذا المخلوق الهائل ووصفت تنقلاته .

وقد ذكر قبطان سفينة (كوفرن هيجون) أنه كان مبحراً في السواحل الأسترالية يوم 20 تموز ، فرأى ذلك

المخلوق العجيب وهو يقذف عمودين من الماء والبخار بارتفاع عظيم ، كما تفعل الحيتان . ولاحظت الشيء نفسه سفينة (كريستو بال كولن) على مسافة سبعمائة فرسخ يجري من ذلك الموقع يوم 23 تموز . وكان المخلوق البحري يسبح بسرعة عظيمة .

وبعد أسبوعين لاحظت السفينتان (هلفيتا) و (شانون) الظاهرة نفسها في عرض المحيط الأطلسي وكانتا تبحران باتجاهين متعاكسين . وذُكر أن طول الحوت لا يقل عن مائة وستة أمتار ، على حين أن أضخم حوت معروف لا يتجاوز الخمسين متراً طولاً .

وتناقلت الصحف هذه الأنباء ، وعُقدت الاجتماعات لمناقشة هذه الظاهرة ، وانقسم العلماء بين مؤيد ومعارض لوجودها ، واستمر ذلك حوالي ستة أشهر . ثم هدأ الحوار حولها وتناساها الناس ، ولكنها عادت لتتصدر الأنباء بشكل رهيب ، لأنها تشكل خطراً على المواصلات البحرية .

وذلك أن السفينة المسماه (الموارفيه) التي تنقل مائتين وسبعة وثلاثين راكباً من كندا اصطدمت في عرض السواحل الأمريكية بعقبة غير مذكورة في أي خريطة من الخرائط البحرية . ولولا صلابة هيكلها لتعرضت إلى كارثة أكيدة . وحين وصلت إلى الميناء وفُحصت عن قرب تبين أنها أُصيبت بأضرار بليغة ، وذكر ملاحوها أنهم لم يروا سوى فوران الزبد على سطح البحر .

وتعددت مثل هذه الحوادث ، وكان آخرها ما تعرضت له السفينة (سكوتيا) ما بين جزر الأنتيل وجزر الرأس الأخضر إذ اصطدمت بشيء ما ، وظنّ البحارة أن سفينتهم قد انقسمت شطرين ، ولكنهم استطاعوا النجاة من الغرق بمعجزة إلهية ، ووصلوا إلى ليفربول ، وبعد فحص السفينة وجدوا في هيكلها الحديدي شَرْخاً لا تقدر على إحداثه إلا قوة هائلة ، وتوجهت أصابع الاتهام إلى ذلك المخلوق البحري العجيب .

ولم تنقض تلك السنة حتى اختفت في عُرض المحيطات حوالي مائتي سفينة . ولم يعد النقل البحري آمناً ، وارتفعت الأصوات تطالب بالقضاء على هذا المخلوق الخطير .

أثناء هذه الأحداث ، اشتركتُ في بعثة علمية إلى (نبراسكا) باعتباري أستاذاً في متحف التاريخ الطبيعي بباريس ، وفي نهاية شهر آذار كنت في نيويورك أتهيأ للعودة إلى فرنسا ، مُحمّلاً بمجموعة من العيّنات المعدنية والنباتية والحيوانية ، وانصرفت إلى تتبع أخبار هذه القضية من الصحف . ولاحظت أنها عرضَت نظريتين قابلتين للنقاش ، الأولى : أن يكون ذلك الشيء العجيب حيواناً ذا قوة هائلة ، والثانية : أن يكون غواصة ذات طاقة عظيمة . وسرعان ما أُهملت النظرية الثانية لأنه لا يستطيع فرد من الأفراد الحصول على مثل هذه الغواصة لما تتطلبه من الوسائل المالية الطائلة ، ويحتاجه بناؤها من السرّية التامة .



وأما الدول والحكومات فقد كانت مشغولة في تلك الفترة بالحروب ، وقد تبين من التقارير الواردة من شتى الأقطار أن فرنسا وإنكلترا وروسيا وبروسيا وإسبانيا وإيطاليا وتركيا لم تعمد إلى بناء مثل هذه الغواصة لانعدام الوسائل المادية الكافية لديها ، ولم يكن من مصلحة إحدى هذه الدول عرقلة خطوط الملاحة البحرية ، وهي غير قادرة على الاحتفاظ بمثل هذا السر لأن بعضها يتجسس على بعض ويرقب كل تحركاته ، فما بالك إذا كان صاحب المشروع رجلاً فرداً ؟

وقد سُئلت في نيويورك عن هذا الموضوع لأني مختص في الحيوانات البحرية ، ولي مؤلف بعنوان (عجائب أعماق البحار) وكلفتني جريدة (نيويورك هيرالد) بكتابة مقالة حوله . فذكرت في المقالة إمكانية أن يكون الحيوان من نوع الحوت " الأقرن " ، أي الذي يحمل على رأسه قرناً يشبه سيفاً من العاج ، صلباً كالفولاذ ، فإذا وجد حوت ضخم من هذا النوع أمكنه أن يسبب من الأضرار ما سببه للسفينة

(سكودا) ، وأن يتطابق مع الأوصاف التي ذكرها بحارة السفينة (شانون) .

وقد قوبلت مقالتي بالتقدير ، ولم يعد الحيوان البحري شيئاً لا وجود له . لذلك كلفت حكومة الولايات المتحدة فرْقاطةً حربية تدعى (أبراهام لنكولن) بمطاردة هذا الحوت الأقرن ، وجهّزتها بالمعدات الكاملة وكانت مستعدة للإبحار . ولكن الحيوان الغريب اختفى وكأنما حذّره أحد ، أو كان يقرأ الصحف ..

وبعد شهرين شوهد الحيوان في المحيط الهادي يوم 3 تموز، فتقرر إرسال الفرقاطة فوراً ، ووصلتني الرسالة التالية :

" سيدي : إذا كان لديكم رغبة في الانضمام إلى بعثة الفرقاطة " أبراهام لنكولن " فإن حكومة الولايات المتحدة يسعدها أن تكون فرنسا ممثلة في شخصكم الكريم في هذه البعثة ، وقد وضع الضابط (فراغوت) مقصورة خاصة تحت تصرفكم .

سكرتير البحرية : ج . هـ . هوبسون "

الفصل الثاني

التجوال في المحيط

كنت شديد الشوق إلى المساهمة في هذه البعثة على الرغم من تعبي ورغبتي في العودة إلى حديقة النباتات في باريس ، وتمنيت أن نتمكن من اصطياد هذا المخلوق البحري في الشواطئ الأوروبية حتى يُضاف إلى مجموعة المتحف الفرنسي ذلك الرمح العاجي الفريد في العالم .

وهتفت :

- كونسيل !

وكونسيل هو خادمي ، وهو شاب رائع يرافقني حيثما ذهبت ،ويتصف بالهدوء والنظام وإتقانه لأشياء كثيرة .

وقد اعتاد العيش معي في متحف التاريخ الطبيعي ، فأحرز معلومات كثيرة في تصنيف الحيوانات إلى فصائلها وأنواعها وأجناسها ، ولكن علمه لا يتجاوز التصنيف ، إذ إنه قادر على معرفة سمك القرش من سواه . وجاءنا جوابه :

- هل سيدي ينادي ؟

وعيب كونسيل أنه لا يخاطبني إلا بصيغة ضمير الغائب ، فقلت له :

- نعم يا ولدي ، سنرحل خلال ساعتين ، فاحزم الحقائب ولا تحمل إلا الأشياء الضرورية .. وبسرعة ؟

- سأرسلها إلى فرنسا إذن ؟

فقلت أُداوره :

- طبعاً ، ولكن بعد جولة قصيرة .

- ليتجول سيدي كما يشاء .

- سنبحر فوق الفرقاطة (أبراهام لنكولن) لمطاردة الحيوان البحري الأقرن ، وهي بعثة مجيدة ولكنها محفوفة بالمخاطر .

– كما يشاء سيدي .

بعد ربع ساعة كنا قد دفعنا فاتورة الفندق وأرسلنا مجموعاتي إلى فرنسا ، وركبنا السيارة إلى بروكلين ، وهناك رأينا الفرقاطة تنفث الدخان استعداداً للرحيل .

صعدنا إليها في الحال ودلّنا أحد البحارة على مقصورتنا ، فتركت فيها كونسيل وذهبت لرؤية الضابط فراغوت ، فرحب بي ورافقته لمشاهدة مناورات الإبحار ، فلم يلبث أن أعطى أمره قائلاً :

– إلى الأمام !

فانطلقت الفرقاطة موازية لأرصفة ميناء بروكلين والناس يلوحون بمناديلهم ويهللون لها ، فوصلت الساعة الثامنة مساء إلى مياه الأطلسي .

وكان الضابط فراغوت جزءاً من فرقاطته ، فقد انطلق لمطاردة الحيوان المتوحش كأنه فارس من العصور الوسطى ، فإما أن يقتل الوحش أو يقتله الوحش ، وبَحّارته يقتدون به ،

ولكن لديهم دافعاً آخر هو مكافأة قدرها ألفا دولار لمن يرى الوحش أولاً .

كانت الفرقاطة قمة في التجهيزات ، ففيها رماح عادية كسفينة صيد الحيتان ، وطلقات نارية انفجارية ، وقد نصب في مقدمتها مدفع متطور هو أفضل ما وصلت إليه العلوم سنة 1867 ، قادر على إطلاق قنبلة وزنها أربعة كيلو غرامات إلى مسافة ستة كيلو مترات .

ولكن السلاح الأكثر فتكاً على متن الفرقاطة هو : نيدلاند . ونيدلاند هذا ملك الرمّاحين وسيد من سَدّد رمحاً إلى حوت ، فقد كان حاد النظرات ، قوي الذراعين ، ماهراً شجاعاً ويساوي وحده طاقماً .

وكان له نفس عمري ، أي أربعون عاماً ، وأصله من الكيبك الكندية ، مما قرَّبه إليّ باعتباري فرنسياً ، وسوف تنعقد صداقة بيننا على إثر هذه المغامرات التي عشناها معاً .

أما الآن ، فإن نيدلاند هو الشخص الوحيد على ظهر الفرقاطة الذي يشك في وجود الحوت الأقرن العملاق ، ولم

تستطع براهيني العلمية أن تغير رأيه ، ولا يستطيع هذا الرمّاح المجرب أن يعتقد بوجود حوت عملاق قادر على شطر سفينة مثل " سكوتيا " .

لذلك كان يقضي وقته في القراءة والنوم ، وأما على ظهر السفينة فقد كانت الحماسة لاهبة .

فكل بحار أو ضابط يمد بصره إلى الأفق لعله يلمح الحوت العملاق ، وكم من مرة انطلقت الفرقاطة إلى نقطة سوداء بعيدة ، فوجدتها حوتاً عادياً أو دلفيناً مألوفاً .

اجتازت السفينة (كاب هورن) ودخلت مياه المحيط الهادي ، وعبرنا يوم 20 تموز خط الاستواء ، وأبحرنا نحو المنطقة التي شوهد فيها الوحش آخر مرة .

ولبثت السفينة تتجول ثلاثة أشهر شمال المحيط الهادي ، ما بين الساحل الأميركي والساحل الياباني ، فلم نعثر له على أثر . ولم يعد في وسعنا الاستمرار في البحث ، وقد نال منا اليأس ، حتى أكثر المتحمسين لهذه البعثة بدؤوا يرتابون في جدواها ، وظنوا أنهم تمسكوا بخرافة لا وجود لها . وعزم

الضابط أن يطلب مهلة ثلاثة أشهر إضافية ، فإذا لم تعثر الفرقاطة على طريدتها توجهت إلى أوروبا وقد أدت واجبها .

وكان الضابط يأمر أن ترمى إلى البحر قطع اللحم ، لعلها تجذب رائحة الدم ذلك الحيوان البحري ، فكانت أسماك القرش أول المدعوين إلى هذه الوليمة ، وانتهت المدة الإضافية في الخامس من تشرين الأول ظهراً .

وقفت ذلك المساء على حاجز السفينة أتأمل الأمواج وقد أضاءها ضوء القمر ومعي كونسيل ، فقلت له :

– أضعنا ستة أشهر من وقتنا .

– كانت تكفيني لكي أصنف مجموعات سيدي .

– وأخشى أن يُستهزأ بنا بعد عودتنا .

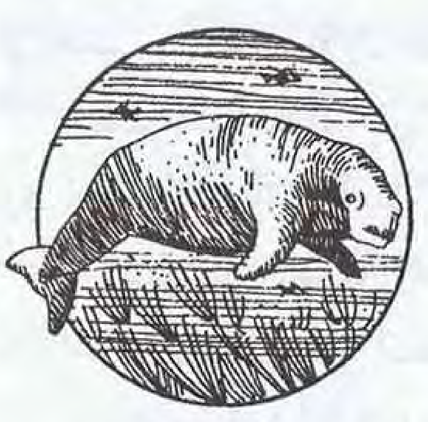
– لا .. لأن شهرة سيدي لا تسمح لأحد بالاستهزاء منه .

وما كاد كونسيل ينهي عبارته ، حتى ارتفع صوت نيدلاند يصيح :

– الوحش .. الوحش .. في الماء .

الفصل الثالث

حوت من فصيلة مجهولة



حين ارتفع صوت نيدلاند بالنداء اندفع الجميع إلى السطح من الضباط إلى الطباخ ، وتوقفت الفرقاطة ، ورأينا في العتمة العميقة ما أشار إليه نيدلاند ، كان على مسافة ثلاثمائة متر ، بيضوي الشكل ، يضيء البحر حوله ، ونوره يعشي الأبصار .

وصاح أحدهم :

– إنه يشعّ بالفوسفور !

فقلت له :

– لا .. إن هذه الظاهرة من طبيعة كهربائية .. انظروا إنه يتحرك .

وابتعد هذا الوحش الخرافي عن الفرقاطة مخلفاً وراءه أمواجاً مرتفعة .

وأمر الضابط :

– إلى الأمام بسرعة !

واتخذ كلٌّ موقعه . ولكن ما كادت الفرقاطة تتحرك لمطاردته حتى وصل إلى الأفق البعيد ، ثم ارتد إلى الفرقاطة وهاجمها بسرعة فائقة .

وصاح الضابط :

– اعكسوا الاتجاه .. إلى الوراء !

وما زال الحيوان يدنو منا بسرعة ضعف سرعتنا حتى توقف على خمسين متراً منا ، ثم اختفى ليظهر من الناحية الثانية من الفرقاطة كأنه غطس تحتها ، فكنّا نطارده وإذا به يطاردنا .

وسألني الضابط :

– هل أنت متأكد من فصيلة هذا الحيوان ؟

– إنه حوت أقرن من النوع الكهربائي .

– أظنه أضخم حيوان عرفَتْه البحار .. ولن أخاطر بالفرقاطة في الظلام .. الأفضل انتظار طلوع النهار لنقوم بالهجوم .

وظلّ الجميع ساهرين على سطح الفرقاطة ، وجلست مع نيدلاند نتأمل هذا المخلوق الذي تهدهده الأمواج ، وفجأة اختفى الضوء المشع منه ، وسمعنا صفيراً عالياً يشق الفضاء ، وسأل الضابط نيدلاند :

– أليس هذا الصفير الذي تطلقه الحيتان حين تتنفس على سطح الماء ؟

– ولكنه يطلق صفيراً لا يطلقه سرب كامل من الحيتان .

طلع الفجر واستعدت الفرقاطة للهجوم ، ولكن الضباب الكثيف حجب عنا الرؤية ، ولم تستطع المناظير المقربة اختراقه ، فانتظرنا ونحن على أحرَّ من الجمر انقشاع الضباب ، وحوالي الساعة الثامنة ارتفع صوت نيدلاند :

– الوحش ... وراء السفينة ..

وتوجهت الأنظار إليه ، فإذا هو يشقّ الأمواج على مسافة نصف ميل منا ، ودنت الفرقاطة منه ، فقدّرتُ طوله بثمانين متراً تقريباً ، وكان ينفث الماء والبخار إلى ارتفاع أربعين متراً ، وتأكدت أنه حوت من فصيلة الثدييات ، ولكن لم أستطع تحديد صفاته بالضبط .

وصاح فراغوت :

– بأقصى سرعة !

وارتفعت أصوات البحارة بالهتاف والتهليل ، واندفعت الفرقاطة كالطوربيد ، ولم يتحرك الحيوان حتى أصبحت على مسافة مائة متر منه ، فابتعد محافظاً على هذه المسافة بيننا وبينه .

وصرخ الضابط :

– ضاعفوا السرعة .

ثم استدعى المهندس الميكانيكي وسأله :

– ما هي سرعتك الآن ؟

– ست وحدات ضغط جوي ونصف !

– أعط القوة القصوى .. عشر وحدات جوية .

وأطلقت السفينة الدخان الأسود وهي تنطلق بقوة عظيمة ، واستمرت المطاردة من الثامنة حتى الثانية عشرة . وقد تباطأ الحيوان عدّة مرات ، ونيدلاند يصرخ ورمحه بيده :

– أمسكناه .. أمسكناه .

فكان الحيوان يدور حول الفرقاطة بسرعة هائلة ثم يستأنف اندفاعه أمامها ، وأدرك الضابط أن الفرقاطة غير قادرة على اللحاق به فهتف :

– خمسمائة دولار لمن يثقب هذا الحيوان الجهنمي .

فوقف أحد رماة المدفعية القدامى وراء المدفع وصوَّبه بدقة وأناة ، ثم أطلق القنبلة فأصاب الحيوان إصابة مباشرة ، ولكنها انزلقت عن ظهره وغاصت في الماء .

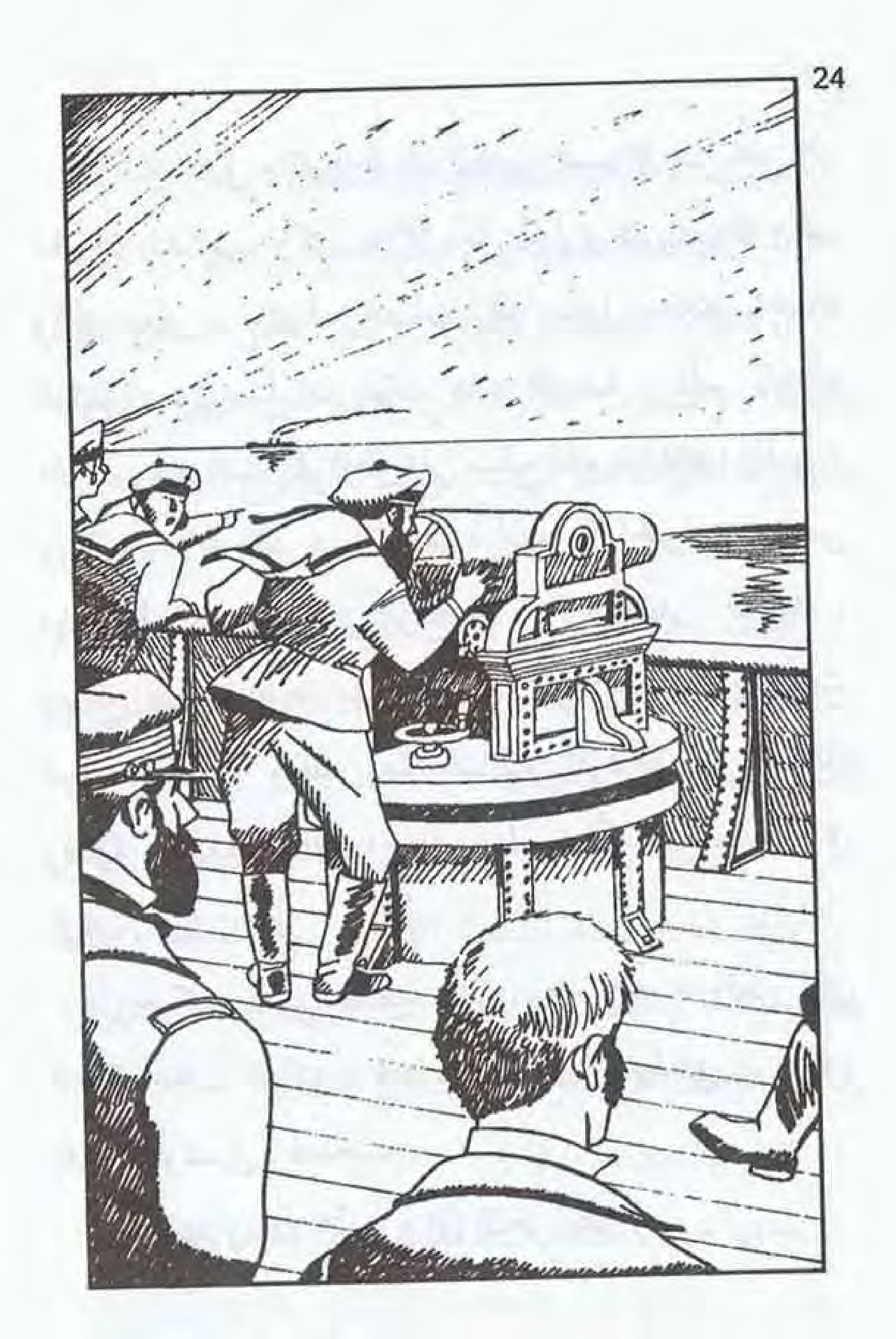
فقال الضابط مذهولاً :

– إنه حيوان مصفّح .. سأطارده حتى تنفجر المحركات !

وأقبل الليل والفرقاطة قد قطعت خمسمائة متر على إثر الحيوان الشارد ، وكان يتلألأ بكل أنواره على مسافة ميلين وكأنه يغفو ، وعرف الضابط أنه يسهل مهاجمة الحيتان النائمة . ولم يشأ أن يفوّت هذه الفرصة ، فأمر بإيقاف المحرك ، وانزلقت الفرقاطة على سطح الماء باندفاعها الذاتيّ ، ووقف نيدلاند على مسافة عشرة أمتار من الحيوان ، وحبس الجميع أنفاسهم ، واهتز الرمح في يد " نيدلاند " ثم رماه ، وسُمع صوت اصطدامه بجسم صلب له رنين ، وانطفأت أنواره فجأة ، وبعد برهة أصابت الفرقاطة ضربة هائلة رفعتها ، واندفعت الأمواج إلى سطحها فكنسته وسقطتُ في البحر .

وحركت قدميّ فصعدت إلى سطح الماء ، ولكن ثيابي الثقيلة أعاقت حركتي ، فغطست .. حينئذٍ جذبتني يد قوية ، إنها يد كونسيل ، فصحت :

– وهل رمتك الأمواج إلى البحر أيضاً ؟



– لا يا سيدي .. ولكن تبعت سيدي لأقدّم له خدماتي .

– والفرقاطة ؟

– حين قفزت سمعت البحارة يصرخون أن المروحة والدفة قد تحطمتا .

– ضعنا إذن !

فقال كونسيل بصوت رزين :

– هل يسمح لي سيدي بأن أنزع عنه ثيابه ، ويقدم لي الخدمة نفسها لكي نسبح على راحتنا .

فأعاد هدوؤه الثقة إلى نفسي .

ظهر القمر في السماء حوالي الساعة الواحدة ، وسقط نوره على الفرقاطة الجاثمة في الأفق . واشتد بي التعب ولم أعد قادراً على المقاومة ، وطلبت من كونسيل أن يتخلى عني فأبى ، ورفع صوته ينادي :

– النجدة .. النجدة !

وإذا صوت يجاوبه ، صوت نيدلاند :

– اقتربوا مني .. هنا الأمان .

وسبحت إليه عدة أمتار يتبعني كونسيل ، وسألته :

– ماذا تعني ؟

– إني متمسك بمكافأتي .. بل واقف فوقها .

ووقفت بجانبه كأننا فوق جزيرة وسط الماء ، وقال نيد :

– أتدري لِمَ لَمْ يخترق رمحي جلد الحيوان ؟ لأنه مصنوع من الفولاذ ، وأنت واقف فوقه الآن .

ومددت يدي أتلمس الجسم الذي استقرت عليه قدماي ، فإذا هو صفائح حديد تربطها الحزقات ، وزال كل شك عندي ، إننا فوق غواصة تحركها آلات ويقودها طاقم .

فصحت فرحاً :

– لقد نجونا .. إذن .

فتمتم نيدلاند :

– ربما .. من يدري ؟

كانت الغواصة تتحرك ببطء ونحن متمسكون بعضنا ببعض ، ثم وقعت يد نيدلاند على حلقة كبيرة ، فقبض عليها

وشدنا إليه ، وقضينا الليل كله نرتعد من البرد والخوف ، فماذا نفعل إن غطست الغواصة ؟

وطلع الصباح ، وما كدت أتفحص المكان الذي وقفنا فوقه حتى بدأ الماء يفور من حولنا وكأن الغواصة تتهيأ للغطس ، فجعل نيدلاند يخبط السطح بقدمه وهو يصيح :

– افتحوا .. افتحوا ..

وكان صوت المحركات يطغى على صوته ، ثم توقفت .

وسمعنا صوت معدن يتحرك ، وانفتح غطاء من سطح الغواصة وظهر ثمانية رجال قادونا إلى الداخل .

الفصل الرابع

السائر في العنصر السائل

وانغلق الغطاء فوقنا على ظلام دامس ، وأحسست تحت قدميّ درجات من الحديد ، ثم فتح باب وانغلق وراءنا بضوضاء صاخبة ، وصاح نيدلاند :

– يا له من استقبال .. سأضرب أول من يجرؤ :

فقاطعته قائلاً :

– هدئ نفسك يا نيد ! فوَضْعُنا لا يسمح لنا باستعمال العنف .

ولبثنا في العتمة حوالي نصف ساعة ، ثم أضاء النور سجننا ، ولم يكن في الحجرة سوى طاولة وخمسة مقاعد ولا منفذ في الجدران .

وكان النور إعلاناً بزيارة أحد ما ، فقد سمعنا صوت أقدام ، ثم انفتح الباب ودخل رجلان . الأول قصير القامة مفتول العضلات شعره كثيف أسود ، وتدل نظراته على أنه من منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وأما الثاني فقد كان وسيماً طويل القامة ، يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، عالي الجبين أشمّ الأنف ، له نظرات هادئة ، وتدل هيئته على علو النفس وكبريائها .

ويرتدي الرجلان ثياباً بسيطة من نسيج خاص ، وفي قدميهما حذاء مصنوع من جلد الفقمة .

فتوجه الرجل الوسيم إلى الآخر يخاطبه بلغة لم أفهمها ، فأجابه بعبارات قصيرة ، وتكلمت معهما بالفرنسية وقلت إنني لا أفهم لغتهما ، فلم يظهر عليهما فَهْمُ ما أقول .

وقال كونسيل :

– ليحك لهما سيدي ما حدث معنا .

فرويت بإسهاب تفاصيل مغامرتنا ، فلم ينطقا بحرف ، فاتجهت إلى نيد وطلبت منه أن يرويها بالإنكليزية . فعرض

الرمّاح تفاصيل المغامرة بكثير من الإسهاب وعبَّر عنها بالحركات ، وختمها بأن أشار إلى فمه دلالة على جوعه وعطشه ، ولكنهما لم يتأثرا به ، فقال كونسيل :

– هل يسمح لي سيدي بحكايتها بالألمانية ؟

– كيف ؟ وهل تعرف الألمانية ؟

– إني فلمنكي كما تعلم .. ونحن جيران الألمان .

وروى كونيسل المغامرة للمرة الثالثة دون أن ينجح في إفهامهما شيئاً ، فقلت لنفسي لعلهما يفهمان اللاتينية . ورويت ما حدث بما بقي في ذاكرتي من اللاتينية ، فتبادل الرجلان الكلام فيما بينهما ثم انصرفا دون أن يهتما بنا وبثقافتنا اللغوية .

واهتاج نيدلاند وهو يقول :

– نكلمهما بأربع لغات ، ولا يكلفان أنفسهما عناء الجواب ؟ لقد أفهمتهم باللغة العالمية لغة الإشارات ، أننا جائعون فكيف لا يفهمون ؟

بعد لحظات دخل خادم يحمل إلينا ملابس من ذلك القماش المجهول وأحذية ، وما كدنا نرتديها حتى دخل خادم آخر يحمل إلينا مائدة عامرة بالطعام .

تذوقت الأطعمة فوجدتها لذيذة ، لعلها من الأسماك أو بعض النباتات ، ولكنها جديرة بمطعم من الدرجة الأولى ، ونظرت إلى الصحون فإذا فيها هذه الكتابة :

السائر في العنصر السائل (ن) .

ولعل الحرف (نون) هو اختصار لاسم القبطان أو ضابط هذه الغواصة . والتهمنا هذه الوجبة اللذيذة وقد أحسسنا بالطمأنينة لنوايا مضيفينا ، وداعب النعاس جفوننا بعد هذا الطعام اللذيذ ، وتعَبِ الليلة الماضية التي واجهنا فيها الهلاك . ولم تمر دقائق حتى كان صاحباي يغطان في نوم عميق ، وشعرت بأن الغواصة تغطس تحت الماء وانطبقت أجفاني رغماً عني .

استيقظت قبلهما وأنا أحسُّ بالراحة ، وكان الخادم قد حمل الصحون أثناء غفوتنا ، وشعرت بالقلق لاستمرار سجننا

وقد تناقص الأوكسجين في الغرفة ، وتساءلت عن طريقتهم في إرسال الأوكسجين ، هل يستخدمون الوسائل الكيماوية ؟ أم يخزّنون الهواء المضغوط ؟ أم أنهم يصعدون إلى سطح الماء ؟

كنت غارقاً في تأملاتي حين هبّت عليّ نسمات منعشة من الهواء البحري الرطب ، وتأكد لي أنهم يستخدمون أوفر الوسائل لاستنشاق الهواء ، فيصعدون إلى سطح الماء ، وأنعشتْ هذه النسمات صاحبيّ وأيقظتهما ، وسألني كونسيل :

– هل نام سيدي جيداً ؟

– نعم .. وأنت يا نيدلاند ؟

– كنت مضطرباً يا سيد (أرونكس) ، ولكن كم الساعة الآن ؟ ألم يحن وقت العشاء ؟

– ربما حان وقت الإفطار .

– العشاء أو الإفطار ، إن معدتي تطالب بهما معاً ، وهذا الخادم لا يأتي !

وقال كونسيل :

– سننتظر أن يُقْرع الجرس .. هكذا يفعلون في الأماكن الراقية .

فاعترض نيدلاند وقال :

– إلى متى نظل محبوسين في علبة السردين هذه ؟ ما رأيك يا أستاذ ؟

فقلت :

– لا أدري ، ولكن الذي أعلمه أننا كشفنا سراً لا ينبغي لنا الاطلاع عليه ، وهو أغلى على أصحابه من أرواحنا نحن الثلاثة ، فمصيرنا مظلم ، فلننتظر لأنه ليس بيدنا شيء .

– ولا نفعل شيئاً ؟

– وماذا سنفعل يا نيد ؟

– أن نهرب .

– الهرب من سجن عادي أمر عسير ، فما بالك بسجن في غواصة ؟

وبعد صمت قصير قال كونسيل :

– الأفضل أن نظلّ في السجن ، فذلك خير من أن نكون فوقه أو تحته .

فأجابه نيدلاند :

– ولم لا نطردهم منه ؟

فقلت مندهشاً :

– وهل نفكر بالاستيلاء على الغواصة ؟

– ولِمَ لا يا أستاذ أرونكس ؟ وهل يعجز فرنسيان وكندي على السيطرة على عشرين بحاراً ؟ .

وكانت المناقشة مستحيلة مع هذا الرماح الغاضب ، فقلت له :

– لا يمكننا الاستيلاء عليها إلا بالحيلة ، لذلك أطلب منك الهدوء والسيطرة على أعصابك حتى لا ينكشف أمرنا .

– أعدك بهذا يا أستاذ ، فلن أنطق بكلمة واحدة ولن أقوم بحركة حتى لو كان الطعام مخالفاً لذوقي .

وانصرف كلٌّ منا إلى أفكاره ، ولبث كونسيل هادئاً ، ولكن نيدلاند يهمس لنفسه بصوت خافت ، ثم ينهض

فيتمشى كالنمر الحبيس ، وبعد قليل بدأ يضرب الحائط بقبضة يده ويركله بقدمه وينادي الخادم وقد قرصه الجوع .

بعد دقائق دخل الخادم ، فاندفع إليه نيدلاند وأمسك بخناقه ، فمنعه كونسيل عنه ، ونهضت لمساعدته وإذا صوت ينطق بفرنسية طليقة قائلاً :

– اهدأ يا نيدلاند ، وأنت يا سيدي الأستاذ أرجو أن تصغي إليّ .

ولدهشة نيدلاند أطلق الخادم ونظر إلى القبطان الذي يخاطبه ، وأشار هذا إلى الخادم بالخروج فمضى ، ثم التفت إلينا قائلاً بصوت رزين وحازم :

– أيها السادة .. إني أتكلم الفرنسية والإنكليزية والألمانية واللاتينية ، وإذا كنت لم أجبكم وتأخرت محادثتي إلى هذه الزيارة ، فذلك لكي أعلمكم بأنكم دخلتم حياة إنسان قطع صلاته بالمجتمع .

فقلت :

– غصباً عنا .

– كيف غصباً عنكم ؟ فهل كنتم على متن (أبراهام لنكولن) غصباً عنكم ؟ وهل قَبَلَتْني الفرقاطة غصباً عنكم ؟ وهل صوَّب إليّ السيد نيدلاند رمحه غصباً عنكم ؟

فقلت له :

– لعلك تجهل يا سيدي ما أثارته غواصتك من الذعر في أوروبا وأميركا ، وقد ظنوها إحدى الكائنات العملاقة التي تهدد أمن البحار .

فأجابه الرجل بابتسامة :

– وهل تنكر أن الفرقاطة كانت ستهاجمنا إذا عرفت أنها غواصة وليست حيواناً متوحشاً ؟

وكان سكوتي تأكيداً لكلامه ، فاستأنف قائلاً :

– لي الحق بأن أعاملكم كأعداء إذن ! فأترككم على ظهر الغواصة ثم أغطس في الماء ، وأنساكم إلى الأبد .

فقلت :

– نعم .. هذا حق الرجل المتوحش ، وأما الرجل المتمدن فلا يفعلها .

فالتمعت عيناه بالغضب وقال :

– يا سيدي الأستاذ ، لست ما تدعوه بالرجل المتمدن ، فقد وضعت نفسي خارج القوانين البشرية ، وأرجوك ألا تشير إلى هذا المعنى مستقبلاً .

ثم عاد إليه هدوؤه وقال : بعد تفكير طويل قررت أن أقوم بعمل إنساني يتطابق مع مصلحتي ، وذلك بأن أترككم تتجولون أحراراً حرية نسبية طبعاً ، ولكن على شرط واحد .

– ما هو يا سيدي ؟

– قد تجبرنا بعض الأحداث على إبقائكم في غرفكم بضع ساعات ، أو بضعة أيام لئلا تطلعوا على ما لا ينبغي لكم ..

– نقبل هذا الشرط .. ولكنك ذكرت أننا سنظل أحراراً على متن الغواصة ، ماذا تقصد بالحرية هنا ؟

– حرية التجوال والملاحظة ورؤية كل شيء يحدث هنا .

– هل معنى ذلك أننا لن نعود إلى أهلنا وبلدنا ؟

– نعم يا سيدي !

فارتفع صوتي وأنا أقول : هذه قسوة .. هذا استغلال .

– لا .. بل هو التسامح والمغفرة ! لقد أنقذت حياتكم بعد أن هاجمتم غواصتي واطلعتم على سر وجودي ، وتريدني أن أدعكم تعودون إلى الأرض التي هجرتها ؟ هذا لا يكون !

– إنك تخيرنا يا سيدي بين الحياة والموت .

– نعم .. بكل بساطة .. ولكني أقول لك يا سيدي الأستاذ إني مطلع على مؤلفاتك حول البحار .. ولعلك تشاركني أبحاثي في جولتي الجديدة حول العالم ، وقد تكون الأخيرة ، وسوف تدهش لما لم يره رجل مثلك من المتشبثين باليابسة .

– ولكنْ لدي سؤال أخير .

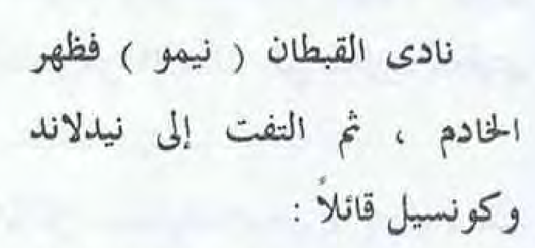
– تفضل .

– كيف أدعوك ؟

– اسمي القبطان (نيمو) وأنت وصاحباك المسافرون على متن الغواصة (نوتيلوس) .

الفصل الخامس

النوتيلوس



نادى القبطان (نيمو) فظهر الخادم ، ثم التفت إلى نيدلاند وكونسيل قائلاً :

– إن الوجبة تنتظركما في مقصورتكما ، تفضلا بالذهاب مع هذا الرجل .

فقال نيدلاند :

– بكل سرور .

لقد استمرّ سجننا ثلاثين ساعة . ثم خاطبني القبطان قائلاً :

– اسمح لي يا أستاذ أرونكس .. إن الغداء بانتظارنا .

وسبقني إلى قاعة فسيحة محاطة بالخزائن الزجاجية المضاءة بأنوار ساطعة وقال :

– تفضل بالجلوس .. وكل كمن يموت من الجوع .

وتذوقت الأطعمة فعرفت أن مصدرها بحري ، وتولى القبطان (نيمو) الإجابة عن الأسئلة التي تدور بخاطري فقال :

– إن كل هذه المآكل مصدرها البحر ، إن ما تظنه شريحة لحم بقر هو كبد الدلفين ، وهذه شريحة من لحم السلحفاة ، وهذه قشدة من حليب الحوت ، وهذه المربيات من النباتات البحرية ، حتى ثيابنا مصنوعة من تلك النباتات .

إن البحر يا سيدي الأستاذ نبع لا ينضب وثروة لا انتهاء لها ، حتى العطر الذي تجده في مقصورتك ، والريشة التي تكتب بها مصدرها شوارب الحوت ، كل شيء يأتي من البحر وإليه يعود ذات يوم .

– هل تحب البحر يا قبطان ؟

– نعم أحبه ، فالبحر كل شيء ، إنه خزان الطبيعة الشاسع حيث الحياة تمر وهو خارج عن سيطرة البشر ، ها هنا الاستقلال وهنا أكون حراً .

وصمت القبطان نيمو كأنه ندم لانفعاله وإفصاحه عن مكنون نفسه ، ثم عاد إليه هدوؤه فقال :

– والآن يا سيدي الأستاذ ، إذا رغبت في زيارة النوتيلوس فإني في خدمتك .

ونهض ففتح باباً مضاعفاً خَلْفَه ، فدخلنا غرفة مساوية في مساحتها الغرفة الأولى ، إنها المكتبة . كانت الجدران عامرة بالمجلدات ، وقد حوت مكتبته مؤلفات الأقدمين والمحدثين من هوميروس إلى فيكتور هيغو ، ولكن العلوم تشغل مكانة هامة فيها ، والظاهر أن القبطان يهتم بدراسة الميكانيك والمقذوفات والهيدروليك وعلم طبقات الأرض والفلك والتاريخ الطبيعي ، وعلى الطاولة عدد من الجرائد والمنشورات الصفراء . فقلت له :



– لا أكاد أصدق عيني يا سيدي ، إن لديك ستة أو سبعة آلاف مجلد .

– بل اثنا عشر مجلداً يا أستاذ ، وهي الصلة الوحيدة التي ما تزال تربطني بالأرض ، وهي تحت تصرفك .

ثم فتح القبطان نيمو باباً في صدر المكتبة ، فدخلنا قاعة واسعة شديدة الإضاءة وهي متحف حقيقي قد احتوى كل عجائب المخلوقات والفنون ، وقد علقت على الجدران لوحات لمشاهير الرسامين : رفائيل ، روبنس ، دلاكروا ، أنجرس . ورأيت أرغناً كبيراً في صدر القاعة وبجانبه نوتات لموسيقا : موزار ، بيتهوفن ، فاغنر ، غونود . وكان القبطان نيمو غارقاً في تفكير عميق ، فاحترمت صمته وتابعت زيارتي .

وسط القاعة نافورة يتصاعد ماؤها من صَدَفَةٍ كبيرة ، وتحيط بها مجموعة من الأصداف النادرة ، وقد صنفت وكتبت عليها أسماؤها .

وحول القاعة واجهات زجاجية تضم أنواعاً كثيرة من اللؤلؤ ، بعضها كبير بحجم بيضة الحمام ، وتتوزع ألوانها بين الوردي والأخضر والأصفر والأزرق والأسود ، ويعجز الخيال عن تقدير أثمانها . وساءلت نفسي كيف استطاع القبطان نيمو الحصول على المال لشرائها ؟

اقترب مني القبطان وقال :

– أراك تتفحص مجموعاتي يا أستاذ وهي جديرة بأن تجذب انتباه عالم الطبيعة ، ولكنّ لها سحراً خاصاً بالنسبة إليّ لأني جمعتها بنفسي .

– هذه مجموعات نادرة لا يحتويها متحف في العالم ، ولكن الأعجوبة التي لم أطلع عليها بعد هي النوتيلوس ، فكيف تسير ؟ وما الطاقة التي تسيِّرها ؟

– ستزور النوتيلوس بالتفصيل ، ولكن قبل ذلك سأريك مقصورتك الخاصة بك .

وسرت وراء القبطان نيمو ، فدخلنا غرفة واسعة أنيقة ، ثم فتح باباً بجانبها وقال :

– إن غرفتك جانب غرفتي ، وهي ملاصقة للقاعة التي غادرناها الآن .

ولم يكن في غرفة القبطان نيمو سوى ما يفي بالحاجة ، سرير من الحديد ، وطاولة للكتابة وكرسيان .

وطلب مني الجلوس وهو يقول :

– إن الطاقة التي أستخدمها قوية سريعة وتفي بكل الاحتياجات ، فهي تضيء وتدفئ ، وتحرك الآلات ، وهذه الطاقة هي : الكهرباء .

فقلت له :

– ولكن الطاقة الحركية للكهرباء ضعيفة ، فهل تمنح كل هذه القوة للنوتيلوس ؟

– إن الكهرباء التي أستخدمها تختلف عن كهرباء الأرض ، فأنا أستمدها من البحر .

– من البحر ؟

– نعم ، كلها من البحر ، فأنت تعلم أن ماء البحر مشع بكلورات الصوديوم ، والبطاريات التي أستخدمها مزيج من

الزئبق والصوديوم . لأن الزئبق لا يفنى أبداً على العكس من الزنك ، والطاقة المتولدة عن الصوديوم ضعف الناتجة عن الزنك .

– ولكنك لا تستخلص الصوديوم إلا بعد هَدْر طاقةٍ أكثر مما تستخلصه .

– لا .. لأني أستخلص الصوديوم بواسطة فحم البحر .

– والهواء الذي تتنفسه ؟

– إني أصعد إلى السطح لأتزود بالهواء ، ولكن إذا اقتضى الأمر فإني أخزنه بالضغط في خزانات خاصة .

فشددت على يده وأنا أقول :

– إن هذه الكهرباء سوف تعوض الريح والبخار .

– سنَزور الآن الجانب الخلفي من النوتيلوس .

ومشى بي إلى الممرات وسط الغواصة ، وتوقفنا أمام سلم يؤدي إلى الأعلى ، وسألته عنه فقال :

– إنه السلم الذي يرقى إلى حجرة القارب .

– وهل لديك قارب تستعمله على سطح الماء ؟

– حين أريد الخروج أفتح باب السطح وأرمي القارب الذي ينفخ بالهواء المضغوط ، واستعمله إما بالمجاذيف أو بالشراع .

ثم مررنا بحجرتَيْ نيدلاند وكونسيل ، فوجدهما قد أنهيا طعامهما . وفتح القبطان باب المطبخ فإذا هو مجهز تجهيزاً تاماً بالمعدات الكهربائية ، وبجانبه الحمام المزود بالماء الساخن ، ولم أستطع رؤية طاقم الغواصة فقد أُغلق الباب عليهم .

ثم مضينا إلى قاعة الآلات فكان طولها عشرين متراً منقسمة إلى قسمين : يحتوي الأول العناصر المنتجة للكهرباء ، ويحتوي الثاني الآلات المحركة للعنفة ، وقال لي القبطان نيمو :

– هذه الطاقة الكهربائية الناتجة هنا تُدفع إلى الخلف حيث الروافع والمسنَنات التي تحولها إلى طاقة حركية تدير العنفة ، ومحور العنفة ستة أمتار يدور مائة وعشرين دورة في الثانية .

– وما هي السرعة الكلية ؟

– ثمانون كيلو متراً في الساعة .

فقلت له :

– إني معجب بنتائج هذه الأبحاث ، ولكن كيف تناور بالغواصة ؟ هل هذا تطفل مني ؟

– لا يا سيدي الأستاذ ، لأنك لن تغادر الغواصة أبداً ، تفضل معي إلى قاعة الجلوس وسوف أشرح لك كل شيء .

جلست في كرسي مريح والقبطان نيمو قد بسط على الطاولة مخططاً للغواصة نوتيلوس وقال :

– إن هيكل الغواصة على شكل مكوك ، طوله الإجمالي سبعون متراً ، وأقصى عرض له ثمانية أمتار ، وهو مصنوع من الحديد على شكل (T) فيقاوم كما لو كان صلداً ، ولا يطفو منه سوى واحد من عشرة ، فإذا ملأتُ هذا العُشَر غاص ، لذلك جهزت الغواصة بخزانات تساوي هذا العشر ، فإذا أردت أن تطفو على السطح فيجب أن نفرغها .

فقلت له :

– ولكنك حين تكون على عمق ألف متر يلزمك قوة ضغط قدرها مائة كيلو غرام للمتر المكعب .

– لا أستخدم الخزانات إلا للأعماق المتوسطة ، وأما الأعماق التي تتجاوز الخمسة آلاف أو العشرة آلاف متر فلها وسيلة أخرى .

– وكيف يستطيع الطاقم مراقبة البحر ؟

– لدينا قمرة من الكريستال سمكها في المركز واحد وعشرون سنتيمتراً ومقاومتها هائلة . والأضواء الكاشفة تنير ما حولها .

– آه .. عرفت الآن مصدر النور الذي يظهر في البحر على مسافة بعيدة ، يا لها من غواصة رائعة !

– نعم يا أستاذ .. إني أثق بها ثقة عمياء ، فأنا قبطانها وصانعها ومهندسها .

– هل أنت مهندس يا قبطان نيمو ؟

– نعم ، وقد تلقيت دراستي في لندن وباريس ونيويورك قبل أن أعتزل الناس .

– ولكن كيف استطعت صنع هذه الغواصة دون أن تلفت الأنظار إليك ؟

– أقمت الورشة في إحدى الجزر المهجورة ، ثم كلفت عدداً من المهندسين في أنحاء العالم بصنع القطع متفرقة ، ثم قمت مع رفاقي بتجميعها ، وأتلفت مخططاتها .

– لقد كلفتك ثروة طائلة .

– حوالي الخمسة ملايين فرنك بما فيها من تحف فنية .

– أنت رجل ثري إذن ؟

– ثري طائل الثراء .

الفصل السادس
رسالة دعوة

نظرت إلى هذا الرجل العجيب وأنا أتساءل : هل هو صادق ؟ وهل يحسبني غرًّا جاهلاً فيكلمني بهذه الطريقة ؟ سأعرف حقيقته مستقبلاً .

قال القبطان نيمو :

– سنطفو الآن لتحديد موقعنا .

وضغط على زر كهربائي ، وراقب مختلف الأجهزة ، وبدأت المضخات في طرد الهواء المضغوط ، وبدأت عقارب الساعات تشير إلى الضغط الذي تتحمله النوتيلوس وهي في سبيلها إلى الصعود ، ثم توقفت .

فقال القبطان :

– لقد وصلنا .

وتبعته إلى المنصة فكانت السماء صافية حولنا ، والمحيط الهادي على مد النظر . وتناول القبطان السُدْسية [1] ، وبدأ يقيس ارتفاع الشمس .

وهبطنا إلى القاعة فقال لي :

– نحن الآن على مسافة ثلاثمائة ميل من ساحل اليابان ، وفي اليوم الثامن من تشرين الأول تبدأ رحلتنا تحت البحر ، وهذه الخرائط التي تستطيع بها تتبع طريقنا ، والآن يا سيدي الأستاذ سأتركك لدراستك .

وجلست أفكر في هذا الرجل العجيب الذي استضافني ولكنه لم يصافحني حتى الآن ، فمن أثار لديه هذه الكراهية كلها تجاه الإنسانية ؟

ودخل نيدلاند وكونسيل إلى القاعة ، فصاح نيد وهو يرى هذه الكنوز :

– هل نحن في متحف الكيبك ؟

1 – السُدْسية : جهاز لقياس ارتفاع الشمس والأجرام السماوية .

فأجابه كونسيل :

– بل في القصر الكبير .

فقلت لهما :

– بل أنتما في النوتيلوس على عمق خمسين متراً تحت البحر .

وسألني نيدلاند :

– كم من الرجال على متن الغواصة ؟ عشرة ، خمسون ، مائة ؟

– لا أدري . ولكن أنصحك بأن تتخلى عن فكرة السيطرة على النوتيلوس أو الهرب منها ، فاصبر وتمتع بالفرجة عليها لأنها عمل في صَنْعةُ نابغةٌ .

– على أي شيء أتفرج ؟ إنها علبة سردين ، ولا نعرف أين نذهب فيها ؟

في تلك اللحظة أطفئت الأنوار وسمعنا صوت صفائح تنزلق ، ثم بدا لنا المحيط من وراء النوافذ الزجاجية وقد أنارته الأضواء ، وكان مشهداً لا يوصف لروعته ، فقال كونسيل :

– هذا يستحق الفرجة !

ولبثنا ساعتين نتأمل هذه الأسماك الجميلة تمر أمامنا بأنواعها وألوانها ، بعضها نعرفه ونذكر فصائله ، وبعضها الآخر نراه للمرّة الأولى على سَعَة اطلاعنا .

وفجأة أضيئت القاعة وانسدلت الصفائح واختفى المشهد ، وتوقعت قدوم القبطان نيمو ولكنه لم يحضر ، وكانت الساعة الكهربائية تشير إلى الخامسة .

رجع نيدلاند وكونسيل إلى مقصورهما ، وعدت إلى غرفتي فطالعت بعض الكتب ، ثم تأملت قليلاً وتمددت على فراشي المحشو بالنباتات البحرية ، على حين كانت النوتيلوس تمضي تحت مياه المحيط الهادي .

ومن الغد استيقظت بعد رقادٍ دامَ عشر ساعات ، فجاء كونسيل للسؤال عن صحتي كعادته ، ولكني كنت مشغولاً بغياب القبطان نيمو وأتوقع زيارته اليوم .

ارتديت ثيابي ومضيت إلى القاعة الكبرى حيث بدأت دراسة المجموعات البحرية والنباتات التي احتفظت بكل

نضارها . ومرّ النهار على هذه الشاكلة ومؤشرات الغواصة تدل على الاتجاه والسرعة والعمق نفسها دون تبديل .

صباح الغد لم يظهر القبطان نيمو ولا طاقمه فجلست أدوّن مذكراتي .

في اليوم الثاني يوم 11 تشرين الأول صباحاً هبت نسمات عليلة فعلمت أن الغواصة قد طفت على سطح الماء ، فصعدت إلى المنصة أتنشق الهواء ، وكان الجو رائعاً والشمس مشرقة . وسمعت بعد قليل خطوات على السلم ، وصعد مساعد القبطان فرفع منظاراً مقرباً إلى عينيه وبدأ يتأمل الآفاق من حوله ، ثم قال هذه الجملة التي حفظتها ولم أفهم معناها ، لأني أسمعها كل صباح :

" نوترون رسبوك لورني فيرش "

ثم هبط المساعد فظننت أن الغواصة ستغوص ، ولكنها ظلت طافية على السطح ، وكان المساعد يكرر عمله كل صباح ، وحسبت أني لن أرى القبطان نيمو أبداً .

في السادس عشر من تشرين الأول كنت بصحبة نيدلاند وكونسيل حين وجدت رسالة على طاولتي وفيها العبارات التالية :

" الأستاذ أرونكس على متن النوتيلوس .

16 تشرين الأول **1867**

إن القبطان نيمو يدعو الأستاذ أرونكس إلى جولة صيد صباح الغد في غابات جزيرة كريسبو ، وآمل أن يشارك فيها ، ويستطيع اصطحاب رفيقيه إذا شاء .

القبطان نيمو ضابط النوتيلوس "

وصاح نيدلاند : سيهبط إلى اليابسة إذن ؟

– هذا واضح من الرسالة ، ولكن أين تقع هذه الجزيرة ؟

ووجدت على الخريطة جزيرة صغيرة شمال المحيط الهادي على مسافة **1800** ميل من نقطة انطلاقنا .

فقال كونسيل : حين نطأ الأرض ، سنرى ما نفعله ، ولا بأس بتنويع طعامنا اليومي .

ارتديت ثيابي صباح الغد واتجهت إلى القاعة الكبرى ، فوجدت القبطان نيمو بانتظاري ، فحيّاني وسألني إن كنا سنصحبه دون أن يشير إلى غيابه ، فأجبته بأننا جاهزون لمرافقته ، ثم قلت له :

– هل أطرح عليك سؤالاً ؟

– تفضل يا سيدي الأستاذ .

– هل تملك غابات في جزيرة كريسبو وأنت الذي قطعت علاقتك باليابسة ؟

– إنها غابات بحرية .

– وهل نتجول فيها على أقدامنا ؟

– طبعاً ... وبنادقنا بيدنا .

فقلت في نفسي : إن هذا الرجل قد فقد عقله .

الفصل السابع
الغابة البحرية

تناولنا الطعام ساكتين ، ثم قال لي القبطان نيمو :

– لقد وعدتك بجولة بحرية ، ولكني لم أعدك بتناول الطعام في أحد المطاعم الفخمة .

فقلت له :

– وكيف نتجول في هذه الغابة ؟

– في الطرائق القديمة المعروفة تستخدم بدلة غوص موصولة بأنابيب مطاطية تضخ الهواء ، فلا تسمح بالابتعاد كثيراً وأما أنا فأستخدم بدلة تخيلها اثنان من بلدك فرنسا ، وفيها الهواء المضغوط الكافي لمدة تسع ساعات .

– حسناً .. والإضاءة ؟

– نستعمل جهاز (ريسهمكروف) الذي يحتوي على بطارية الصوديوم وصفائحها من غاز الفحم ، وهذا الغاز يضيء حين يشتغل الجهاز .

– إنك تجيب عن أسئلتي بطريقة علمية مقنعة ، وماذا عن بنادق الصيد ؟ وما هو البارود الذي تستعمله ؟

– لا أستخدم بنادق البارود ، بل بنادق الهواء المضغوط .

– والرصاص ؟ إن فاعليته تزول حين يخترق الماء .

– على العكس ، إن الرصاص صاعق وما إن يمس الحيوان حتى يصرعه .

– وكيف ؟

– إنه رصاص من الزجاج المكهرب المغطى بالفولاذ ، فإذا أصابته صدمة أفرغ شحنته الكهربائية من التوتر العالي .

فقلت وأنا أنهض معجباً باختراعه :

– لن أجادلك بعد الآن ، وإني ذاهب معك حيث تريد .

ومضى بي القبطان نيمو إلى مؤخرة الغواصة وتبعنا نيدلاند وكونسيل .

دخلنا حجرة فيها عشر بدلات غوص ، فأدرك نيدلاند أنه لن يصيد في غابة برية ، فامتنع عن الذهاب . فجاء رجل وساعدني على ارتداء البدلة المطاطية ووضع على رأسي الخوذة الفولاذية المزودة بفتحات ثلاث تتيح لي الرؤية من كل الجهات .

وسأل القبطان كونسيل :

– وأنت هل تذهب أم لا ؟

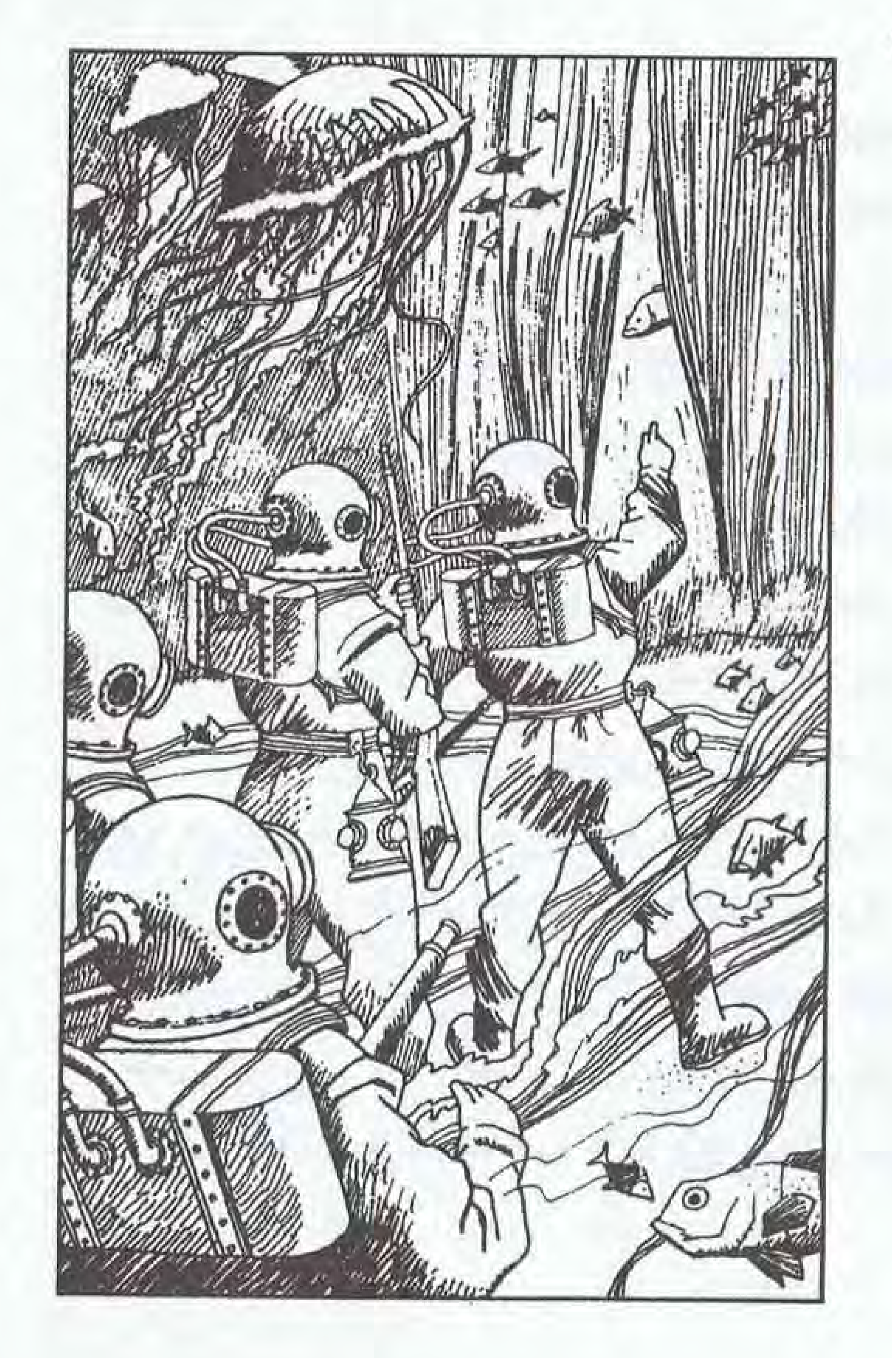
– إني أمضي حيث يمضي سيدي .

بعد دقائق وجدت نفسي داخل بدلة الغوص وخزان الهواء على ظهري والمصباح معلق بزناري وبيدي بندقية الصيد ، ولكن يثقل قدميّ الحذاء ذو النعل الرصاصي . وأُغلقت الحجرة جيداً ثم تدفق إليها الماء ، وصعدنا إلى أعلى وقد خف ثقل حذائي .

بدأنا نتجول على الأرض الرملية الناعمة ومصابيح الغواصة تضيء ما حولنا ، ورأيت سطح الماء على عشرة أمتار فوق رأسي .

كانت الساعة العاشرة صباحاً ونور الشمس ينفذ إلى الماء ويضيء لنا الصخور والزهور والأصداف .

ووقف كونسيل ذاهلاً لروعة المشهد ، ولم أكن قادراً على مخاطبته فكنت أكلم نفسي معبراً عن إعجابي بما أرى ، ونادانا القبطان نيمو بإشارة من يده ، فمضينا معه وإذا الأرض منحدرة ، وبعد سهول الرمل وصلنا إلى المروج البحرية من الطحالب والإشنيات بأنواعها ، وكان العمق مائة متر تقريباً ، فتوقف القبطان أمام ما يدعوه الغابة البحرية ، وقد ارتفعت نباتاتها كالأشجار وحولها الأسماك الصغيرة تنتقل من غصن إلى غصن كأنها العصافير . كان علوها يزيد على خمسة عشر متراً ، تتحرك كأنها تهب عليها الرياح . إنها غابة حقيقية تحت الماء ..



بعد ساعة من السير أعطى القبطان نيمو الإشارة بالوقوف .

وبعد أربع ساعات من السير لم أحس بالجوع والتعب ، ولكن شعرت برغبة شديدة في النوم ، وهذا ما يحس به الغواصون عادة ، ورأيت كونسيل يشير إليّ فقربت رأسي النحاسي من رأسه ، فأشار إلي بوجهه إشارات مضحكة .

كان القبطان نيمو ورفاقه قد ارتموا راقدين فوق هذه المروج المضاءة كأنها الكريستال ، ففعلنا مثلهم ، وغفوت غفوة لم أعرف مدتها ، ولكن حين استيقظت وجدت القبطان نيمو واقفاً . ولا تسل عن دهشتي حين رأيت عنكبوتاً بحرياً طوله متر يمدّ إليّ كماشاته المخيفة ، فأومأ القبطان إلى أحد بحارته فضربه بفأسه ، وأدركت أن المنطقة غاصة بالحيوانات الخطرة ، ولا تنقذني سوى بندقيتي فاحترست لها . ولكن جولتنا لم تتوقف هنا على العكس مما تخيلت ، فقد تابع القبطان نيمو سيره في أرض يتزايد انحدارها حتى وصلنا وادياً ترتفع على جانبيه الصخور العالية ، وكان الظلام شديداً ،

فأشعل القبطان نيمو بطاريته فأضاءت ما حوله ، وفعلنا مثله فأضاءت البحر أشعات طولها خمسة وعشرون متراً .

حوالي الساعة الرابعة وجدنا أمامنا جداراً عالياً من الصخور الغرانيتية لا يمكن اجتيازها ، إنها جزيرة كريسبو ..

وتوقف القبطان ، هاهنا ينتهي ميدان صيده ، وتبدأ اليابسة التي حرم على نفسه السير فوقها .

استأنفنا طريق العودة في أرض وعرة يصعب السير فيها ، واقتربت أشعة الشمس من رؤوسنا وظهرت أنوارها على شكل قوس قزح يخترق الماء .

هنالك شاهدت أحد رفاق القبطان يتنكب بندقيته ويصوّب نحو طائر اقترب من سطح الماء وقد بسط جناحيه ، فأرداه قتيلاً .. إنه طائر نورس من نوع نادر ، وقد سقط على خطوات منا .

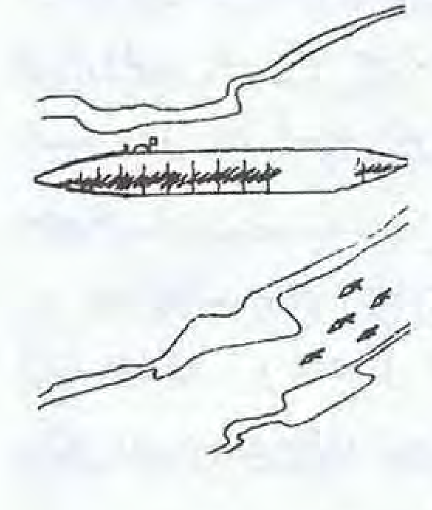
كنا نسير على أرض رملية ممتدة أمامنا ، فمشينا ساعة تقريباً وإذا أضواء النوتيلوس تظهر لنا على مسافة كيلو متر واحد تقريباً .

لم أعد قادراً على الاحتمال ، فقد هدني المسير فجلست قرب صخرة ، ورجع إليّ القبطان نيمو وساعدني على الوقوف ، فتوكأت على ذراعه ، ولكنه جذبني واختبأنا وراء شجيرة من الطحالب ، ورفعت رأسي إلى أعلى فتجمد الدم في عروقي ، لقد كان حيوان القرش بعينيه اللامعتين ممسكاً بجسم رجل بين أسنانه الفولاذية ، وابتعد عنّا دون أن يبصرنا .

بعد نصف ساعة دخلنا حجرة في النوتيلوس ونزعنا عنّا ثيابنا المطاطية ، وعدت إلى غرفتي منهكاً ميتاً من الجوع ، ولكني مفتون بهذه الجولة البحرية .

الفصل الثامن

أربعة آلاف فرسخ تحت المحيط الهادي



حكى كونسيل لنيدلاند تفاصيل الرحلة فأسف لأنه لم يرافقنا . وانقضت أسابيع لم أشاهد فيها القبطان نيمو ، ولكني أرى مساعده يصعد إلى المنصة ويكرر عبارته التي لم أفهمها ، فقلت لنفسي لعل معناها " لا شيء يرى" .

وعرفت النقطة التي يرصد منها المساعد موقعنا ، فاستطعت أن أتابع مسيرة النوتيلوس على الخريطة ، وكنا نقضي وقتنا في الاستمتاع بمشاهدة مناظر المحيط الهادي من وراء النوافذ الزجاجية .

توجهت النوتيلوس إلى الجنوب الغربي ، واجتزنا يوم **26** تشرين الأول مدار السرطان ، ومن الغد شاهدت من فوق المنصة جزر هاواي الكبيرة ، وفي أول تشرين الثاني اجتزنا خط الاستواء .

وكنت يوم **11** تشرين الثاني في المكتبة مشغولاً بالقراءة إذ دخل علي كونسيل وقال :

– ليأت سيدي فيرى ما رأينا .

فأسرعت إلى القاعة ، ونظرت إلى النوافذ الزجاجية ، فرأيت كتلة سوداء جامدة في وسط المياه . وظننتها حوتاً ضخماً ، ولكن تبينتها جيداً فإذا هي سفينة غارقة كانت مرمية على جانبها وبحارتها قد تشبثوا بالحبال أو الحواجز ، والربّان متمسك بالدفة وعيناه مفتوحتان وكأن الجميع صورة فوتوغرافية ثابتة . ودارت النوتيلوس حول السفينة فاستطعت أن أقرأ عليها اسم " فلوريدا " .

وكلما عبرت بنا الغواصة مياهاً أكثر ازدحاماً بالسفن صادفنا حطام السفن الغارقة ومدافع السفن الحربية ومعداتها .

صباح يوم **15** تشرين الثاني رأيت قمم (تاهيتي) ملكة المحيط الهادي ، وكانت النوتيلوس قد قطعت حوالي **4860** فرسخاً واقتربت من جزر (فيجي) .

ويوم **25** تشرين الثاني ، أي في عيد الفصح ، كنا في خليج (وايلي) ، فتزودنا بكمية من محاراتها الجيدة وأكل منها نيدلاند ما شاء تعويضاً عن احتفاله بهذا العيد مع أهله .

لم أكن قد رأيت القبطان نيمو منذ أسبوع ، فدخل عليّ القاعة ولم يلق التحية ، واقترب ووضع إصبعه على الخريطة وقال :

– فانيكورو !

وهذا اسم عجيب لأنه يعود بنا إلى سنة **1785** حينما كلّف الملك لويس الخامس عشر الأمير (لابيروز) بقيادة حملة عبر المحيط الهادي ، واختفت في هذه المنطقة سفينتاه (البوصلة) و (الأصطرلاب) وعلى متنهما جمهرة من العلماء .

سنة **1827** اكتشف الضابط الإنكليزي (ديلون) في جزيرة فانيكورو حطام السفينتين .

وسألت القبطان نيمو : هل وجهتنا فانيكورو ؟

فأجاب : نعم يا أستاذ .

– ومتى نصلها ؟

فأشار القبطان نيمو إلى الألواح التي تغطي النوافذ وقد انزلقت وقال : إنها هناك .

فأسرعت إلى النوافذ ، فرأيت حطام سفينة بصواريها ومرساتها .

وقال لي القبطان نيمو بصوت حزين : لقد استطاع لابيروز أن يصل إلى الجزيرة بعد تحطم سفينته ، ولكنه صنع سفينة صغيرة من حطامها وأبحر إلى جزر سليمان ثم هلك ما بين رأس (الخيبة) ورأس (الرضا) ، وأرجو من الله أن يكون مصيري وأصحابي مثل مصيره .

يوم الخامس من كانون الأول كنا في عرض مياه غينيا الجديدة ، وذكر لي القبطان نيمو أنه ينوي عبور مضيق

(توريس) ليصل إلى المحيط الهندي ، وهذا المضيق من أصعب المضايق البحرية لأن فيه الصخور الضخمة المسننة والجزر الصغيرة المتناثرة ، وقد دخلتُه ببطء والأمواج تفور من حولها .

قال نيدلاند : إن القبطان شديد الثقة بنفسه ، لأني أرى من مكاني هذه الصخور المدببة التي تعترض طريقنا وقد تحول النوتيلوس إلى أجزاء من قطع الغيار .

فقلت له : وهذا البحر الهائج لا يلائم الغواصة أبداً .

وكان القبطان يتحرك بالغواصة بين الصخور الهائلة ويتجنب بأعجوبة الاصطدام بها ، حتى خرج من المضيق فوصلنا الساعة الثالثة بعد الظهر قرب جزيرة (غيبورور) .

وفجأة ألقتني على الأرض صدمة قوية ، وتوقفت النوتيلوس تماماً ، ونهضت لأجد القبطان نيمو ومساعده يتحدثان بلغتهما ، فسألته : هل هذا حادث ؟

– بل حَدَثٌ طارئ .

فقلت له : ولكن الغواصة راسية على المياه الضحلة .

– أعلم ذلك .. واليوم هو الخامس من كانون الأول ، وفي الثامن منه سوف يظهر القمر ، فيرتفع المد وتعلو الأمواج ، ونستأنف طريقنا .

ثم نزل ومساعده إلى الداخل واقترب مني كونسيل ونيدلاند الذي سألني : ماذا حدث ؟

– ننتظر القمر الرائع لكي ينقذنا ويرمينا إلى عُرض البحر .

فهز كتفيه وقال : أما رأيي أنا فهو أن هذه الكومة من الخردة لا تصلح إلا لبيعها بالكيلو ، وقد حان الوقت لكي نغادر القبطان نيمو .

فقلت له : سنرى النتيجة بعد ثلاثة أيام .. وأما الهرب فمستحيل عبر غينيا الجديدة .

– لِمَ لا نتنزه عبر هذه الجزيرة لعلنا نصيد بعض اللحم الطازج ، فقد سئمت أكل الأعشاب البحرية .

فتدخل كونسيل قائلاً : نيد على حق ، ألا يستطيع سيدي الحصول لنا من القبطان على إذن بالتجوال على اليابسة ؟ ، فقد تيبست مفاصلنا .

– سأطلب منه ذلك ، ولكنه سيرفض .

ودهشت حين قبل القبطان نيمو أن نتجول في الجزيرة . ووضع القارب تحت تصرفنا منذ صباح الغد .

ركبنا القارب مسلحين بالبنادق والفؤوس ، وكان كونسيل ونيدلاند يجذفان ، وأمسكت بالدفة أوجهها فقال نيد : سنأكل لحماً مشوياً .. إني أشم رائحته الآن .

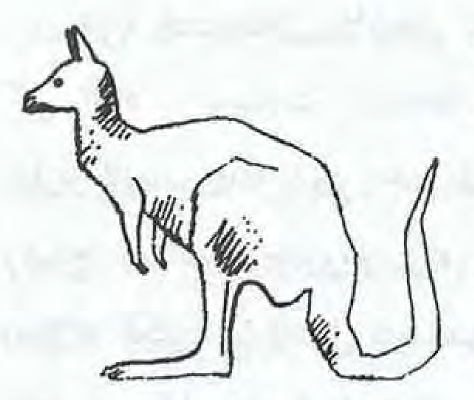
– ولكن حذار من الوحوش ، فقد تكون صياداً ثم تصبح فريسة !

– سآكل لحم النمر إذا قدرت .

ووصلنا الساعة الثامنة والنصف إلى جزيرة غيبورور .

الفصل التاسع

صاعقة القبطان نيمو



كانت الأزهار البرية تزهو بألوانها والغابات الخضراء تسد الأفق ، ولكن نيدلاند لم يتأثر بهذا الجمال ، بل سارع إلى شجرة من أشجار جوز الهند فقطع عدداً من الجوز وكسرها وشربنا ماءها ، ثم قطع كمية كبيرة منها ورماها في القارب ، فقلت له :

– إن في الجزيرة أنواعاً أخرى من الطعام أكثر فائدة من جوز الهند .

وقال له كونسيل :

– أقترح أن تكون مؤونتنا على ثلاثة أنواع : الفواكه والخضار واللحوم التي لم أرها حتى الآن .

فقال له الرّماح :

– لا تيأس يا كونسيل .. وسوف ترى .

سرنا تحت ظلال الأشجار الكثيفة حوالي الساعتين في كل اتجاه ، وشاءت المصادفة أن نعثر على ما يدعى (أرتوكاربوس) أو شجر الخبز المنتشرة في جزيرة غيبورور ، وصاح نيدلاند فرحاً وهو يراه ، فقد اعتاد معالجته أثناء رحلاته الكثيرة ، فأشعل ناراً صغيرة ثم أضاف إليها بعض الحطب ، وقطع هذه الثمار شرائح سميكة وجعل يشويها .

وسألني :

– ألم يأكل منها سيدي من قبل ؟

– لا يا نيد .

– إذن استعد لتناول حلويات لذيذة الطعم .

وبعد دقائق كانت الفواكه جاهزة ، وكان طعمها شبيهاً بالأرضي شوكي ، وسألته :

– هل يمكنني الاحتفاظ بها طازجة على ظهر السفينة .

فقال :

– لا .. الأفضل أن نشويها هنا ونخزنها معنا .

وتدخل كونسيل :

– حصلنا على الخبز ، والآن تنقصنا الفواكه والخضار واللحوم .

ولم يكن بحثنا عبثاً ، فقد عثرنا حوالي الظهر على كمية كبيرة من الموز والمانغو ، وسبقنا نيدلاند وهو يجتاز بعض الجداول متوجهاً نحو وسط الجزيرة ، فرأينا سهلاً فسيحاً أمامنا ، ولاحظت كثرة طيوره ، فصحت قائلاً :

– طيور الجنة .. هيا يا نيد اصطدْ لنا بعضها .

– سأحاول ، ولكني أُفضل الرمح على البندقية .

استهلك كثيراً من الرصاص دون أن يصيب واحداً منها ، وكدنا نيأس منها لولا أن أصاب كونسيل زوجاً من الديكة البرية ، فأسرعنا إلى نتف ريشها وشيّها على النار .

وسألت الكندي :

– ماذا ينقصك الآن يا نيد ؟

فقال :

– هذا الديك فاتح للشهية فقط ، ولن أشبع إلا إذا اصطدت حيواناً له أضلاع سمينة .

وقال كونسيل :

– أرى أن نصطاد ونحن عائدون إلى الشاطئ قبل أن يفاجئنا الظلام .

وكان رأيه صائباً ، ومشينا عبر السهول الفسيحة التي تنتشر فيها شجيرات متفرقة . وفجأة صرخ كونسيل فرحاً ، وعاد يحمل أحد طيور الجنة بيده ، فقلت له :

– أحسنت يا كونسيل .. اصطدت طائراً بيدك ؟ هذه ضربة معلم .

– ولكن لينظر إليه سيدي عن قرب ، وسوف يرى أني لم أبذل جهداً .

– ولماذا ؟

– لأنه طائر سكران .

– سكران ؟

– نعم يا سيدي ، إنه سكران برحيق جوز الطيب الذي يرتشفه من شجره ، أرأيت يا نيد كيف تكون عاقبة السكران ؟

فضحك نيد من مداعبته ، وتأملت ذلك الطائر الرائع ، فكان رأسه أصفر يمتد إلى ذيله الطويل .

وكم فرحت لحصولي على هذه العيّنة النادرة .

بعد ساعتين اصطاد نيدلاند غزالاً ضخماً ، فعمد الرجلان إلى تقطيعه ، والتهما نصفه تقريباً . ثم صاد خمسة من حيوان الكنغر الذي يقال إن لحمه شهي ، ولو شاء نيدلاند لأفرغ الجزيرة من حيواناها لشدة شراهته إلى اللحم .

عدنا إلى الشاطئ الساعة السادسة مساءً ، ووجدنا النوتيلوس رابضة في مكانها على مسافة ميلين ، وأظهر لنا نيدلاند مهارته في الطبخ واستعد لتحضير العشاء ، وجلسنا نأكل بشهية عظيمة ، فقال كونسيل :

– لو بقينا هنا هذه الليلة ولم نرجع إليها أبداً !

وتحسر نيدلاند قائلاً :

– بل الأجدى ألا نرجع إليها أبداً .

في تلك اللحظة سقط حجر أمامنا ، ثم أصاب حجر آخر كونسيل وأطار قطعة اللحم من يده .

والتفتنا إلى الغابة فإذا على أطرافها عشرات من سكان الجزيرة وقد تسلحوا بالأقواس والسهام والمقاليع .

وتقدموا بخطا بطيئة ولكن حجارهم تتساقط علينا ، فصحت وأنا أجري نحو القارب :

– اتبعوني !

وكان القارب على مسافة خمسة عشر متراً منا ، ولم يشأ نيدلاند أن يتخلى عن غنائمه فحمل ما قدر على حمله ، وسرعان ما رمينا مؤونتنا في القارب ودفعناه إلى الماء ، فدخل الماء وراءنا عشرة رجال وهم يهزون أيديهم مهددين ويصرخون بأعلى أصواهم ، وبعد عشرين دقيقة وصلنا إلى النوتيلوس .

وجدت القبطان نيمو في القاعة يعزف على الأرغن ، فناديته عدة مرات حتى اجتذبته من تأملاته الموسيقية فقال :

– هل أعجبتك جولتك ؟

– ولكن اضطررنا إلى اختصارها بسبب هؤلاء المتوحشين الذين طاردونا .

فقال بلهجة هازئة :

– المتوحشين ؟ إني أصادفهم حيث توجهت ، وليس المتوحشون من قومك بأفضل منهم .

– إنهم مائة على الأقل .

– اطمئن .. يا سيدي الأستاذ ، حتى لو اجتمعت قبائل غينيا الجديدة كلها فلا خوف على النوتيلوس من هجومهم .

من الغد في السابع من كانون الأول صعدت إلى المنصة حوالي السادسة وانقشع الضباب ، وإذا على شواطئ الجزيرة خمسمئة أو ستمائة من سكانها ، واقترب بعضهم حتى خمسين متراً من الغواصة ، وكان زعيمهم الذي يعلو الريش رأسه يشير بيده وهو يتفحصها على مرمى بندقيتي ، ولكني لم أشأ

المبادرة إلى الهجوم . وحوالي الحادية عشرة ابتعد سكان الجزيرة عن الغواصة لأن المد البحري بدأ في الارتفاع ، وانتهزت هذه الفرصة فناديت كونسيل فجاءني بشبكة تشبه شبكة صيد المحارات فاصطدت خلال ساعتين كمية كبيرة من المحارات والأصداف ، وصرخت صرخة فرح وأنا أتأمل محارة من نوع نادر .

أما كونسيل فقد قال :

– ولكنها محارة مبتذلة .. ويوجد الكثير منها .

فقلت وأنا أتأملها ثانية :

– نعم .. ولكنها تنتقل من اليسار إلى اليمين ، هذه محارة عَسْراء .

ورفع كونسيل هذه الأعجوبة يتأملها ، وإذا حجر يسقط عليها ويكسرها ، فتنكب بندقيته وصوبها فأصاب إسوارة العظم التي يضعها أحد المهاجمين على معصمه ، ولم يكد يفعل حتى هجمت القبيلة على الغواصة وقد رأوها ساكنة لا تتحرك .

وهتف كونسيل :

– اللعنة .. لقد أمطرت السماءُ حجارةً .

وهبطنا إلى الغواصة ، فسارعت إلى القبطان نيمو فوجدته غارقاً في حساباته ، فسألته :

– هل أُزعجك ؟

– نعم .. إلا إذا كان دخولك لسبب وجيه .

– حتماً .. إن مئات المتوحشين يهاجموننا .

فقال وهو يضغط على زر بجانبه :

– يكفي أن نغلق الفتحات .. وقد فعلتُ .. ولا أظنك تخاف أن يخترق المهاجمون الفولاذ بسهامهم ؟

– ولكننا سنضطر إلى فتحها للتزود بالهواء ، فما العمل حينئذٍ ؟

– سيأتي هؤلاء الناس لزيارتنا ، فمرحباً بهم ، ولا أريد أن أرتكب جريمة قتل في جزيرة غوبورور .

– ولكن النوتيلوس غارقة .

– لا .. ليست غارقة ، ولا خطر عليها ، وغداً الساعة الثانية وأربعين دقيقة ستغادر مضيق توريس .

ورجعت إلى غرفتي وأصوات الرجال فوق الغواصة تصل إلى سمعي ولا أحد من الطاقم يهتم بهم ، فنمت نوماً متقطعاً وأنا أتوقع هجومهم كل لحظة .

استيقظت صباحاً فبقيت في المكتبة ولم أر القبطان نيمو ، والأصوات فوق الغواصة لم تتوقف .

حوالي الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة ، ذهبت إلى القاعة الكبرى فوجدت القبطان فيها ، فقال :

– سنرحل .. وقد أعطيت الأمر بتهوية الغواصة .

– والمهاجمون ؟ ألا يدخلونها ؟

فقال بهدوء عجيب :

– لا يمكن لأي إنسان دخول النوتيلوس حين يشاء ، تعال معي وسوف ترى .

أسفل السلالم كان كونسيل ونيدلاند يرقبان رجال الطاقم وهم يكشفون الفتحات ، فأطلت عشرات الرؤوس

منها صارخة مهددة ، ولكنهم حين تقدموا إلى الحواجز المحيطة بها ، أطلقوا صرخات الفزع وولوا هاربين ، وكأن قوة خفية أطاحت بهم إلى الخلف ، وتبعهم نيدلاند بغريزته القتالية ، فأمسك بالحواجز وإذا به يسقط أرضاً وهو يجأر من الألم .

لقد كانت الحواجز مكهربة يجتازها تيار خفيف ، ولو شاء القبطان القضاء عليهم لأرسل تياراً عالي التوتر .

في الساعة الثانية وأربعين دقيقة تماماً تحركت الغواصة نوتيلوس مخلفة وراءها مضيق توريس .

الفصل العاشر

مملكة المرجان

في الأيام التالية استأنفت النوتيلوس مسيرها نحو الغرب بسرعة سبعين كيلو متراً في الساعة ، وعَبَرنا إلى المحيط الهندي بعيداً عن اليابسة ، وقد راقبت القبطان نيمو وهو يقوم بأبحاثه حول درجة ملوحة المياه وعمقها ولونها وحرارتها ، ثم اختفى عدة أيام . وانقضت الأيام على هذا المنوال الذي اعتدناه ، ووجدناه أمراً طبيعياً ، حتى ذكّرتنا إحدى الحوادث بحالتنا .

صباح الثامن عشر من كانون الأول ، صعدت إلى المنصة فرأيت مساعد القبطان يتمشّى والجو متقلب ينذر بعاصفة ، ولم أسمعه ينطق بالعبارة المعتادة بل استبدل بها عبارة أخرى

لا تقل عنها غرابة . وظهر القبطان نيمو فوراً ووجّه منظاره المقرّب إلى نقطة معينة في الأفق وتأملها طويلاً ، ثم تبادل بعض العبارات مع مساعده الذي ظهر عليه القلق . ولم يعد القبطان يتحكم في أعصابه ، فبدأ يتمشى جيئةً وذهاباً ثم يتوقف ليراقب البحر ، وأما أنا فلم أر شيئاً بالعين المجردة ، فنَزلت إلى غرفتي وجلبت منظاري الذي أستخدمه في النُزهات ، وما كدت أرفعه إلى عينيّ حتى انتزعه مني القبطان نيمو وقد ظهر على وجهه الغضب الشديد ، والتمعت عيناه بالحقد ، ثم استعاد هدوءه المألوف وقال بلهجة آمرة :

– يا أستاذ أرونكس .. إني أطالبك بالوفاء بما تعهدتَ به .

– وما الأمر ؟

– أن تبقى أنت ورفاقك محبوسين إذا اقتضت الضرورة ذلك .

فقلت له ، وأنا أعلم أن لا فائدة من المقاومة :

– كما تشاء ، فأنت القبطان .

ومضيت إلى كونسيل ونيد أُعلمهما بما حدث وبقرار القبطان ، ولم يكن لدى نيد وقت للاحتجاج ، إذ أقبل أربعة من رجال الطاقم وساقونا إلى الحجرة التي حُبسنا بها أول مرة ، وطلب مني كونسيل تفسير هذا التصرف ، وقبل أن أقول شيئاً فُتحت الحجرة وجيء بالطعام ، فقال نيد :

– آه .. ولكنه طعام خاص بالسجناء .

فقلت :

– هذا خير من الجوع .

تناولتُ قليلاً من الطعام ، وأجبر كونسيل نفسه على الأكل احتياطاً وحذراً ، وأما نيدلاند فلم يترك فُتات خبزة ، ثم جلس كل منا في ناحية وأُطفئ النور ، وبقينا في الظلام الدامس .

لم يلبث نيد أن نام ولحق به كونسيل ، وشعرت بثقل في رأسي وبدوار عنيف ، فأدركت أن المخدّر قد دُسَّ لنا في الطعام . وسمعت صوت الفتحات وهي تغلق ، وأحسست

بسرعة الغواصة المندفعة تحت الماء ، وأصاب أطرافي برد شديد ، ثم غلبني النعاس .

من صباح الغد ، دُهشت إذ وجدتُني في غرفتي . فهل كنت حراً أم سجيناً ؟ بل حر طليق ، فتجولت في الردهات ، وصعدت إلى المنصة حيث ينتظرني نيد وكونسيل اللذان استيقظا في تلك الليلة ، وأما البحر فكان كالصحراء الخاوية .

في ليلة التاسع عشر من كانون الأول صعدت النوتيلوس إلى السطح مرات عديدة لتجدد هواءها ، وصعد المساعد ليكرر جملته المعتادة .

حوالي الساعة الثانية رأيت القبطان نيمو في القاعة الكبرى كئيب الوجه حزين الملامح وهو يتمشى دون أن ينطق بكلمة ، فيأخذ كتاباً ثم يرميه ، ويجلس ثم ينهض وكأنه لا يطيق البقاء في موضع واحد ، وأخيراً تقدم إليّ قائلاً :

– هل أنت طبيب يا أستاذ أرونكس ؟

لم أتوقع هذا السؤال منه ، فنظرت إليه دون أن أجيبه ، وأعاد عليّ سؤاله ، فقلت له :

– طبعاً .. إني طبيب ممارس في المستشفيات لعدة سنوات قبل أن ألتحق بالمتحف .

فتردد لحظة ثم قال :

– هل تستطيع معالجة أحد رجالي ؟

– وهل عندكم مريض ؟

– نعم .

– إني ذاهب معك .

وحينما كان القبطان يتقدمني إلى مؤخرة النوتيلوس ، شعرت بالقلق ، فقد يكون أحد الأمراض السارية أصاب أحد البحارة ، وأحداث البارحة مرتبطة بهذا المرض .

دخلنا حجرة استلقى فيها رجل في الأربعين من العمر ، وكان رأسه ملفوفاً بالضمادات الملطخة بالدم ، فالأمر لا يتعلق بمرض سارٍ بل بحادث . ففككت الضمادة فإذا عظم الرأس مكسور حتى المخ ، ونبض المريض ضعيف متقطع

لا يكاد يبين ، وأطرافه باردة ، فبدلت الضمادات واتجهت إلى القبطان ، فقال :

– تستطيع الكلام ، فالرجال يجهلون الفرنسية .

– سيموت خلال ساعتين .

– ألا يمكن إنقاذه ؟

– لا يمكن .

وشد قبضتي يديه ، ولمحت غمامة من الحزن قد غمرت عينيه ، وقال لي :

– تستطيع الذهاب يا أستاذ أرونكس !

من صباح الغد وجدت القبطان نيمو على المنصة ، فتوجه إليّ بالحديث فوراً فقال :

– سنقوم اليوم بجولة بحرية ، فهل ترافقنا ؟

– ومعي صاحباي ؟

– إذا شاءا .

– بأمرك يا سيدي القبطان .

– ارتدوا بدلاتكم إذن !

ولم يذكر لي الجريح .

فرح كونسيل لهذه الجولة وأراد نيدلاند مرافقتنا هذه المرة . وبعد نصف ساعة كنا جاهزين ، وبعد دقائق وطئنا بأقدامنا أرض البحر ومعنا عشرة من طاقم الغواصة ، كانت الأرض منحدرة تؤدي إلى قاع فيه كثير من الصخور ، وعرفت المنطقة التي يقودنا القبطان إليها إنها مملكة المرجان .

بعد ساعتين من السير توقف القبطان والبحارة الذين يحملون شيئاً ، وتحت أقدامهم كانت الأرض مرتفعة في عدد من المواضع ، فعرفت أنها مقبرة وأن الشيء الذي يحملونه جثمان الميت .

تناول أحد البحارة رفشاً وحفر في الأرض المرجانية قبراً ، واقترب أصحابه فجعلوا جثمان الرجل فيه ، وركع القبطان نيمو وأصحابه وهم يقولون شيئاً بلغتهم ، وتلونا عليه نحن بعض الصلوات راجين له الرحمة والغفران .

عدنا إلى الغواصة بعد ساعة فقلت للقبطان :

– هل مات الرجل أثناء الليل ؟

– بعد يا سيد أرونكس .

– إنه يرقد الآن مع أصحابه في مملكة المرجان .

فعلت الكآبة وجهه وقال :

– نعم حيث ينساه الجميع إلا نحن .

– موتاكم يرقدون هنا بعيداً عن أسنان سمك القرش .

فقال القبطان نيمو بحزن :

– نعم .. وبعيداً عن أنياب البشر أيضاً .

الجزء الثاني

الفصل الأول

لؤلؤة بعشرة ملايين

لقد كانت حياة القبطان نيمو مرتبطة بالبحر حتى النفس الأخير ، فاختار مقبرة بحرية تقطع علاقته بالمجتمع حتى بعد موته ، ورأى كونسيل أنه عبقري ضيّعه قومه فاعتزلهم ، ولكن هذه الفرضية لا تفسر سرّ حادثة الليلة الماضية والجرح القاتل الذي أصاب الرجل .

لا . إن القبطان نيمو لا يعتزل الناس فحسب ، فهل تكون غواصته وسيلة إلى الانتقام ؟

صباح يوم 24 كانون الأول توجهت الغواصة نحو شبه الجزيرة الهندية ، ووصلنا يوم 26 كانون الأول إلى منطقة

مياهها بيضاء ، كأنها الكلس ، فدهش كونسيل وسألني عن هذه الظاهرة فقلت له :

– هذا بحر الحليب كما يسميه البحارة ، وهو في الحقيقة كمية هائلة من ملايين المخلوقات الشَّعرية الدقيقة لا يتجاوز طولها خُمس المليمتر ، وقد تمتد على مسافة خمسين كيلو متراً .

واخترقت الغواصة هذا البحر الهائل من البياض وسرت داخله عدة ساعات ، وتركته وراءها كأنه الفجر الكاذب .

وصلت النوتيلوس يوم 28 كانون الأول إلى جزيرة سيلان ، ومضيت إلى المكتبة أراجع كتاباً حول هذه الجزيرة الخصبة ، ودخل القبطان نيمو قائلاً :

– إن جزيرة سيلان مشهورة بصيد اللؤلؤ ، فهل ترغب في زيارة إحدى مصائد اللؤلؤ ؟

– لا شك في ذلك .

– لقد وصلنا مبكرين ، فالموسم لم يبدأ بعد ، وإذا أسعفنا الحظ رأينا بعض الصيادين وهم يغوصون على اللؤلؤ ، وبالمناسبة ألا تخاف من أسماك القرش ؟

وفوجئت بسؤاله فقلت له بصوت مرتجف :

– الواقع .. أني .. لم آلف هذه المخلوقات بعد !

– ستفعل مثلنا .. وصيد القرش ممتع كما سترى غداً .

ثم غادر المكان خفيف الخطوات كأنه دعاني إلى حفلة راقصة . بعدئذ دخل كونسيل ونيدلاند ، فقال كونسيل :

– إن القبطان دعانا إلى زيارة مصائد اللؤلؤ في سيلان .

– ولم يذكر لكم شيئاً آخر ؟

– لا .. أبداً ، وهل سيأتي سيدي معنا ؟

– أنا ؟ طبعاً ، لا شك .

– وهل يتفضل سيدي فيشرح لنا كيف يتشكل اللؤلؤ ؟

فقلت له :

– اللؤلؤ يتشكل داخل محارة ، ونواته حبة رمل أو طفيلي دقيق تلتف حوله مادة الصدف سنوات طويلة .

– ويقال إن بعض اللآلئ تباع بأثمان باهظة .

– نعم يا كونسيل ، ولكن لا أظن ملكاً من الملوك لديه لؤلؤة كالتي يملكها القبطان نيمو .

وأشار كونسيل إليها وراء الواجهة الزجاجية :

– أهذه هي ؟

– نعم . وأقدر ثمنها بمليوني فرنك ، ولم تكلف القبطان شيئاً .

– وهل صيد اللؤلؤ خطر ؟

فتدخل نيدلاند قائلاً :

– نعم ، لأن الصياد يبتلع كمية كبيرة من الماء المالح ، فهل هذا خطير ؟

وانتهزت هذه الفرصة لأعلمهما بأنهما مقبلان على صيد القرش ، فقلت لنيدلاند :

– هل تخاف القرش يا نيد ؟

فقال نيد ضاحكاً :

– وهل نسيت أني رمّاح أصيد الحيتان ؟

– ولكنك تصيدها وأنت فوق القارب .

– ماذا تقصد ؟

– أقصد أن تصيدها وأنت في الماء .

– الحقيقة يا سيدي أنك إذا كان معك رمح صلب والتفت إليك القرش ليلتهمك ..

وحين سمعت كلمة " يلتهمك " اقشعر شعر بدني ، لأن نيدلاند يلفظها كأنها مألوفة لديه ، وسألت كونسيل .

– وأنت ما رأيك بصيد أسماك القرش ؟

– أنا .. إذا عزم سيدي على مواجهة أسماك القرش واجهتها معه ، فأنا أتبع سيدي حيث يكون .

تلك الليلة نمت وأنا أحلم بأشداق القرش تلتهم بعض أطرافي ، فنهضت مذعوراً ، ولكني وجدت الخادم أمامي يوقظني ، فالساعة الرابعة صباحاً والقبطان نيمو يدعوني إليه .

قال لي القبطان :

– سوف نترك النوتيلوس بعيداً عن الساحل ، ونركب القارب ومعنا معدات الغوص ، وسوف نرتديها في آخر لحظة .

ومشيت معه إلى المنصة فوجدت نيد وكونسيل وخمسة من البحارة ، فنزلنا القارب وبدأ أربعة منهم يجذفون والخامس ممسك بالدفة يوجه القارب .

بعد ساعتين وصلنا الشاطئ ، فأشار القبطان إلى البحارة فتوقفوا ورموا المرساة . كان عمق الماء حوالي المترين ، فقال القبطان :

– ها قد وصلنا . أترى هذا الشاطئ المهجور ؟ ستراه بعد شهر عامراً بالغواصين على اللؤلؤ .

وارتدينا بدلات الغوص ولكني لم أجد فيها المصابيح لأن المياه قريبة ، وتفقدت البنادق فلم أجدها أيضاً ، وسألت القبطان فقال :

– وما حاجتنا إلى البنادق ؟ هذا نصل صلب قاطع فاجعله في حزامك .

ورأيت نيدلاند يهز رمحاً طويلاً بيده .

وصلنا الساعة الرابعة إلى الصخور التي يفترض أن تكون فيها محارات اللؤلؤ ، ولكنه لم يتوقف عندها ، وأشار إلينا أن نتبعه ، فوصلنا مغارة تتدلى منها الطحالب كالأشجار وتحجب نور الشمس عنا ، وحين اعتادت عيناي الظلام ، رأيت القبطان يتوقف عند حفرة عميقة كالبئر ، وأشار إلى شيء لم نره بعد ، فكانت محارة ضخمة يتجاوز قطرها المترين ، فدنوت من هذه الظاهرة العجيبة التي التصقت بصخرة من الغرانيت ، وقدّرت وزنها حوالي ثلاثمائة كيلو غرام . فأدخل القبطان نيمو خنجره في فتحتها وكشف عنها غطاءها بيده ، فرأيت تحته لؤلؤة تشع بالنور بحجم جوزة الهند كاملة الاستدارة صافية ، فأدركت سبب هذه الزيارة ، لقد كان القبطان عارفاً بموقع المحارة ، وينتظر نموها لكي يضمها إلى مجموعته ، وقدرت ثمنها بعشرة ملايين فرنك على الأقل .

وأطبق القبطان غطاء المحارة على لؤلؤتها الباهرة ، وتفرقنا بين الصخور نبحث عن المحارات ذات اللآلئ .

بعد عشر دقائق استدعانا القبطان إليه . وخطرت ببالي أسماك القرش فخفق قلبي جزعاً ، ولكني وجدت أحد الهنود وقد ضمّ قدميه على حجر موصول بحبل إلى قاربه ، ومعه كيس يملؤه بالمحارات ثم يصعد فيفرغه ، وتدوم العملية ثلاثين ثانية .

وراقبت الرجل نصف ساعة وهو يتردد بين القارب والقاع . وفجأة رأيته يرمي ما بيده ويحاول الصعود بسرعة وقد ظهرت سمكة قرش طولها عشرة أمتار تندفع وقد فتحت شدقها ، فارتمى الهندي جانباً ليبتعد عن أسنانها ، ولكنها لطمته بذيلها ورمته بعيداً .

وانقلبت السمكة على ظهرها وارتدّت إلى الهندي المغمى عليه . عندئذٍ وثب القبطان نيمو إلى سمكة القرش فطعنها بخنجره طعنة نجلاء ، ولكنه فقد توازنه لقوة حركتها وسقط أرضاً ، فاندفعت إليه فاغرة فمها عن ستة صفوف من الأسنان القاطعة ، فلم يمهلها نيدلاند فأرسل رمحه في قلبها ، فغاص نصفه وتدفقت الدماء غزيرة .



نهض القبطان سالماً ، وحمل الهندي بين ذراعيه وارتفع به إلى أعلى ، واعتنينا بالهندي حتى عاد إليه وعيه . فمد القبطان يده إلى بدلته وجذب كيساً صغيراً مملوءاً باللآلئ ، ووضعه في يد الصياد البائس الذي لم يصدق عينيه لرؤية هذه الثروة الطائلة . ثم عدنا إلى الغواصة ، ونزعنا بدلاتنا المطاطية ، فاقترب القبطان من نيدلاند قائلاً :

– شكراً لك يا نيدلاند !

– هذا بعض واجبي نحوك يا قبطان .

فابتسم القبطان ابتسامة خفيفة ، هذا كل شيء .

إن ما لفت انتباهي أمران : شجاعة القبطان نيمو ، وعطفه على الجنس البشري ، وهو الذي اعتزل مجتمعه . وحين صرّحت له بذلك قال بلهجة حانية :

– اعلم يا سيدي أن هذا الهندي من بلاد المستضعفين ، وقد كنت أنتسب إلى هذه البلاد وما أزال ، وسأبقى حتى آخر قطرة من دمي أنتسب إليها .

الفصل الثاني

النَّفَق العربي

يوم 29 كانون الثاني توجهت النوتيلوس إلى جزر المالديف ، ثم انحرفت شمالاً – غرباً نحو عُمان ، ولكنها لم تدخل الخليج العربي . وأبصرت يوم 4 شباط مدينة مسقط بقباب مساجدها ومآذنها ، وأراضها الخضراء .

ومن الغد كانت النوتيلوس مبحرة في خليج عدن ، وظننت أنها ستنطلق إلى المحيط ولكنها انسربت في البحر الأحمر . ولم تكن قناة السويس قد شُقّت في ذلك الزمان ، فتساءلت عن السبب الذي دفع القبطان نيمو إلى الدخول في

هذه المياه المغلقة ، ولم أندم لأنه فعل ذلك ، فقد كانت رؤية الإسفنج بأنواعه وألوانه متعة لا مثيل لها .

وصعدت إلى المنصة فرأيت القبطان واقفاً يتأمل المدن المنتشرة على ضفتي القناة ، وسألني :

– هل درست حيوانات هذا البحر وأسماكه ونباتاته ؟

– نعم .. وهذا بفضل النوتيلوس ، ولكن ما سبب تسميته البحر الأحمر ؟

– هناك نظريات عديدة ، إحداها أن فرعون حينما طارده موسى وقومه غرق في البحر مع جنوده .

– ولكن ما هو رأيك الشخصي ؟

– أظن أن القدماء أطلقوا عليه هذا الاسم بسبب الطحالب المجهرية التي تلون مياهه .

– وهل جئت إلى هذا البحر من قبل ؟

– طبعاً .. مرات عديدة .. ولحسن الحظ فإن حفر قناة السويس قد بدأ ، وسوف يكون مفيداً للملاحة العالمية .

ويؤسفني ألا ترى سوى مدينة بور سعيد ، لأننا سنعبر إلى البحر الأبيض المتوسط بعد غدٍ .

– وهل تستطيع النوتيلوس أن تدور حول إفريقيا في ثمان وعشرين ساعة ؟

– ومن سيدور حول إفريقيا يا سيدي الأستاذ ؟

– إلا إذا مرت الغواصة تحت البرزخ الذي يفصل البحر الأحمر عن البحر الأبيض المتوسط .

– نعم .. سنمر تحت البرزخ .

– تحته ؟

– نعم .

– وهل يوجد نفق تحت البرزخ ؟

– نعم .. نفق تحت الأرض دعوته " النفق العربي " .

– وهل يحق لي أن أسألك كيف اكتشفته ؟

– لم تعد الآن بيننا أسرار لأننا سنظل معاً .

وقد لاحظت أن بعض الأسماك المنتشرة في البحر الأحمر هي من فصيلة واحدة من أسماك البحر الأبيض المتوسط ،

وتساءلت عن وجود ممر بين مياه هذين البحرين ، فاصطدت كمية ضخمة من أسماك البحر الأحمر ، وألصقت بأذيالها خواتم نحاسية وأعدتها إلى الماء ، وبعد شهور اصطدت في شواطئ سوريا عدداً من هذه الأسماك فتأكدت من وجود نفق ، وبحثت عنه بواسطة النوتيلوس ، حتى اكتشفته ، وبعد وقت قصير سنعبر النفق العربي .

حين أعلنت هذا النبأ على كونسيل خبط كفاً بكف من العجب ، وأما نيدلاند فقد هزّ كتفيه وهو يشك في حُدوثه ، ثم قال :

– إذا كان هذا النفق موجوداً فمن حسن حظنا لأنه يؤدي بنا إلى البحر الأبيض المتوسط ومن ثَم إلى أوروبا .

وقت غروب الشمس أبصرنا مدينة جُدّة التي كان بياضها يتلألأ في عتمة المساء .

من الغد العاشر من شباط ، حوالي منتصف النهار كنا واقفين على المنصة ، فانضم إلينا القبطان . ورفع نيدلاند يده وقال :

– انظر هناك يا أستاذ .. ألا ترى شيئاً يتحرك ؟

ونظرت حيث أشار وقلت :

– نعم .. إنه جسم طويل .

وسأل الكندي :

– هل توجد حيتان في البحر الأحمر ؟

– نعم .. عدد قليل .

فقال نيد :

– ولكنه ليس حوتاً ، فما عساه يكون ؟ ليس له ذيل حوت ، وتبدو زعانفه كالأيدي الطويلة .

فقلت :

– إنه من فصيلة الحوت ، وهو يدعى " أطوم " .

وتدخل القبطان نيمو قائلاً :

– ما رأيك أن تصيده ؟ ولكن إذا طعنته فلتكن طعنة قاتلة .

فسأله نيد :

– هل هو خطر ؟

– نعم .. إذا هاجمك .

وبعد دقائق أنزل القارب إلى الماء وصحبنا فيه سبعة من البحارة ، ولم يرافقنا القبطان نيمو ، وكان نيدلاند ممسكاً برمحه وقد ربط بطرفه الآخر حبلاً لفّه حول برميل صغير لكي يطفو ويدل عليه .

اقترب القارب من " الأطوم " بصمت ، وكان طوله سبعة أمتار ، ويبدو أنه راقد ، فرفع نيد رمحه ورماه ، فاختفى الحيوان . وهتف الكندي غاضباً :

– لقد أخطأته .

فقلت له :

– لا ، انظر إلى بقعة الدم هذه ، لقد جرحته ولكن الرمح خَرَجَ منه .

واسترد نيد رمحه بفضل البرميل العائم ، وانطلق القارب لمطاردة الأطوم ، فكان على الرغم من جرحه يسبح سريعاً ، ثم غطس في الماء ، وانتظرنا ساعة حتى صعد وارتد إلى القارب يهاجمه .

وصاح نيدلاند :

- حذار ، إنه يصدمنا .

وكانت الصدمة قوية إلا أنها لم تقلب القارب ، فأمسكه الأطوم بنابيه ورفعه فوق الماء ، ولم يتردد نيدلاند فغرس رمحه في قلبه فهرب سابحاً وهو يجر البرميل وراءه .

وبعد دقائق رأيناه يطفو وبطنه إلى أعلى ، فسحبناه إلى النوتيلوس برافعة ، فقد كان وزنه يتجاوز خمسة الأطنان .

مساءً كان عشاؤنا شرائح من لحمه الأشهى من لحم العجل .

من الغد وصلنا مدينة السويس ، ورأينا أضواءها اللامعة من بعيد ، وقال لي القبطان :

- سنغطس لندخل النفق .

- أظن المناورة صعبة .

- نعم .. ولذلك سأتولاها بنفسي ، هل ترافقني يا أستاذ ؟

- بكل سرور .

دخلنا غرفة القيادة وهي مكعبة طول كل جدار فيها متران ، ولها قمرات ضخمة من الزجاج الصلد تسمح بالرؤية من كل الاتجاهات ، وتضيء لها البحر تلك الأنوار الكاشفة .

قال القبطان :

- سندخل النفق الآن .

كان أمامنا جدار مرتفع ، فهبطت الغواصة تحته الساعة العاشرة والربع ، فرأيت تحت الأضواء الكاشفة نفقاً طويلاً يُسمع فيه هدير هائل ، إنها مياه البحر الأحمر تندفع إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتبعت النوتيلوس تيار الماء .

في الساعة العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة ترك القبطان دفة القيادة لمساعده ، والتفت إليَّ قائلاً :

- مرحباً بك في البحر الأبيض المتوسط .

لقد قطعت النوتيلوس برزخ السويس في أقل من عشرين دقيقة .

الفصل الثالث

البحر الأبيض المتوسط في ثمان وأربعين ساعة

من صباح الغد الثاني عشر من شباط طفت النوتيلوس على سطح الماء ، وكانت أمامنا مدينة دمياط ، ونهض نيدلاند بعد أن نام الليل كله ، وجاء إليّ يتمطى وقال :

– أين هذا البحر المتوسط الذي تحدثنا عنه ؟

– إنك فوق مياهه يا نيد !

– لا تسخر مني يا أستاذ !

فتدخل كونسيل :

– إذا قال لك سيدي الأستاذ شيئاً فصدقه .

فقال نيدلاند وهو يتلفت حوله :

– والآن .. ما دمنا قريبين من أوروبا ، فيجب أن نغادر الغواصة قبل أن يمضي بنا القبطان إلى القطب الشمالي أو المحيط الأوقيانوسي .

والحق أنني لم أكن أشاركه رغبته ، إذ أتيحت لي على متن الغواصة رحلات رائعة لا تتاح لي أبداً ، واستطعت دراسة أعماق البحار بشكل لا أحلم به من قبل .

وسألت نيد :

– قل لي بصراحة ، هل سئمت السفر على متن الغواصة ؟ وهل أسفت لهذه الرحلات ؟

فقال نيد :

– والله إنها فرصة لا تعوض لرؤية البحار ، ولكن لا بد لكل رحلة من نهاية .

– سوف تنتهي الرحلة يا نيد .

– متى ؟ وأين ؟

– لا أدري ، قد تمتد رحلتنا إلى الصين أو إلى السواحل الفرنسية أو إلى الجزيرة البريطانية ، وحينئذٍ تكون الظروف أفضل لنا لمحاولة الهرب .

فقال نيد بصوت رزين :

– إنك تتكلم يا سيدي الأستاذ عن الزمن المستقبل ، وأنا أكلمك عن الزمن الحاضر ، نحن الآن في البحر المتوسط ويجب ألاّ نفوّت هذه الفرصة .

لم أعد أستطيع مداورة نيد والتهرب من جواب صريح له ، فقلت :

– إني أوافقك تماماً ، ولكن ينبغي لمحاولتنا أن تنجح ، وإلا أنزل بنا القبطان أشد العقاب .

– كلامك عين الصواب ، والفرصة السانحة التي أتكلم عنها ستكون عند أحد السواحل الأوروبية في ليلة ظلماء .

– وهل تفكر بالهرب سباحة ؟

– بل أفكر باستخدام القارب ، فحين تبدأ الغواصة بالغطس نفك القارب ونركبه إلى الشاطئ .

فقلت له : ولكن هذه المحاولة مصيرها الفشل .

– ولماذا ؟

– لأن القبطان نيمو ليس غافلاً عنا ، وسوف يضاعف الحراسة علينا حين نصل السواحل الأوروبية .

– سنرى ذلك في حينه .

– ولكن لا تتسرع ، وإذا عزمت أن تفعل شيئاً فأعلمنا ولا تفعله وحدك ، وسنمضي معك .

وكأن القبطان أدرك نوايانا ، فظلت النوتيلوس غائصة طول الوقت في مواجهة السواحل . وحين وصلنا أرخبيل اليونان بقيت ستائر النوافذ في القاعة الكبرى مسدلة .

ونظرت إلى الخريطة فعرفت أننا نتوجه إلى جزيرة (كريت) ، وكانت الجزيرة ثائرة على السلطان التركي ، وأردت أن أسأل القبطان عن أخبارها فأحجمت ، لأن هذا الرجل قطع علاقاته بالعالم الخارجي .

حين جلسنا في القاعة الكبرى وجدت القبطان حائراً وقد فتح ستائر النوافذ كلها وهو يترقب شيئاً في البحر .

وجعلت أتأمل الأسماك التي تمر أمامي ، فأبصرت فجأة كتلة سوداء تتقدم نحونا ، وإذا هو رجل وسط الأمواج يسبح بقوة وسرعة ، ثم يطفو إلى السطح فيتنفس ثم يعود إلى الغوص . فصحت وأنا ألتفت إلى القبطان نيمو :

– إنه غريق .. يجب إنقاذه مهما كان الثمن .

ولكنه لم يتأثر ، ولوّح للرجل بيده فأجابه السباح بإشارة مماثلة ، ثم صعد إلى السطح واختفى .

فقلت للقبطان : إنك تعرفه إذن ؟

– نعم . إنه يدعى (نيقولاس) وهو غواص معروف في رأس (ماتبان) ولا تقلق عليه لأنه يعيش في الماء أكثر مما يعيش على الأرض .

واتجه القبطان إلى صندوق على الطاولة ، ثم فتح خزانة كبيرة وإذا بالسبائك الذهبية مصففة فيها .

ولم يهتم بي بل ملأ الصندوق بالسبائك ثم أغلقه ، وقدرت ما في الخزانة بحوالي الطن ذهباً .

ثم كتب على الصندوق عنواناً باليونانية الحديثة ، وضغط على زر فدخل أربعة رجال فحملوا الصندوق بصعوبة ومضوا به ، وحيّاني القبطان تحية المساء وذهب .

ما العلاقة بين هذا الغواص وصندوق السبائك الذهبية ؟

وطفت الغواصة على السطح وغادرها القارب ، ثم عاد بعد أن أُرسل الصندوق إلى وجهة مجهولة . لماذا نقل القبطان هذه السبائك إلى اليابسة وما الهدف منها ؟ لست أدري .

من الغد غادرت الغواصة الأرخبيل اليوناني وظهر على القبطان أنه يسعى إلى الهرب من البحر المتوسط ، ولعله يثير لديه كثيراً من الذكريات أو الحسرات ؟ لا أعرف .

صباح السادس عشر من شباط عبرنا مضيق جبل طارق والشمس تشرق علينا بيوم جديد .

في هذه الظروف تخلى نيدلاند عن مخططات هربه ، وأما أنا فلم ألمح البحر الأبيض المتوسط إلا سواحله البعيدة .

ليلة 18 شباط غاصت النوتيلوس حوالي ثلاثة آلاف متر تحت الماء ، مقتربة من مضيق جبل طارق .

وبدأت مناظر السفن الغارقة تظهر من وراء النوافذ الزجاجية ، أما النوتيلوس فقد اجتازت المضيق غير مبالية بما حولها ، وبعد دقائق كانت مقدمتها تشق مياه المحيط الأطلسي .

الفصل الرابع
القارة الغارقة

اجتازت الغواصة مضيق جبل طارق ثم ارتفعت إلى سطح الماء ، وكنت في غرفتي حين جاءني نيدلاند عابس الوجه مقطب الجبين وقال :

– هذا المساء ... سيكون هربنا هذا المساء .. لقد اتفقنا على انتظار الفرصة المناسبة وقد جاءت هذه الفرصة ، ونحن على أميال من الساحل ، والريح تهب في اتجاه اليابسة ، والليلة مظلمة .. لقد وعدتني .

قلت :

– ولكن البحر هائج .

– نعم ، البحر هائج ، ولكن الحرية تستحق المخاطرة ، الساعة التاسعة سيكون القبطان في غرفته ، وستظل أنت في المكتبة ، وحين أشير إليك ستنضم إلينا أنا وكونسيل تحت السلم المركزي ، وقد حصلت على مفتاح إنكليزي لفك " عزقات " القارب ، وحضرت بعض المؤونة .. كل شيء جاهز .. ليكن الله في عوننا إلى هذا المساء .

وتركني نيد حائر الفكر ولم يترك لي مجالاً للتراجع .

في تلك اللحظة غاصت النوتيلوس في أعماق المحيط .

فتناولت عشائي بسرعة وأعددت مذكراتي العلمية ، وارتديت ثياباً دافئة وحذاءً من المطاط ومضيت إلى المكتبة أنتظر الساعة التاسعة .

الساعة التاسعة إلا خمس دقائق اصطدمت الغواصة صدمة خفيفة ، فأدركت أنها لامست قاع المحيط .

في تلك اللحظة دخل القبطان وقال :

– إني أبحث عنك ، هل تعرف تاريخ إسبانيا ؟

في حالتي القلقة هذه طارت من رأسي جميع معلوماتي ، فقلت :

– الواقع أنني غير مطلع على التاريخ بشكل جيد .

فقال :

– سأحكي لك إذن فصلاً من هذا التاريخ المضطرب .

قلت :

– إني أستمع إليك يا قبطان .

وبدأ القبطان يروي لي :

– أنت تعلم أن إسبانيا كان يحكمها ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وحدث في سنة **1702** أن نقلت السفن الإسبانية من أمريكا صناديق من الذهب والفضة ، وحين وصلت إلى خليج (فيغو) هاجمتها السفن الإنكليزية ، فاضطر القبطان الفرنسي إلى إحراق السفن المحملة بالذهب لكي تغوص في أعماق البحر ولا تسقط في يد الأعداء .

وسكت القبطان نيمو قليلاً ليعرف جوابي ، ولكني بقيت ساكتاً ، ثم سألته :

– وإذن ؟

– إننا الآن يا أستاذ رونكس في خليج " فيغو " تعال معي .

واقتربنا من النوافذ ، وإذا طاقم النوتيلوس في بدلات الغوص ينقلون الصناديق المملوءة بسبائك الذهب والفضة والحلي .

فابتسم القبطان وهو يقول :

– هذا جواب سؤالك عن مصدر ثروتي ، إني أملك المليارات كما ترى .

– ولكنها أموال ضائعة مع الأسف .

فعلت لهجة القبطان وهو يقول :

– ضائعة ! وهل تظنني يا أستاذ أجمع هذه الثروات لنفسي ؟ وهل تحسبني غافلاً عن المحرومين والبائسين وعن الشعوب المقهورة وعن ضحايا الظلم والاستبداد ؟ إنك لا تعرفني إذن .

وتوقف عن الحديث كأنه باح بأكثر مما ينبغي له ، ولكني أدركت السبب الذي يدفع هذه الروح العظيمة إلى تكديس الكنوز الطائلة ، وعرفت لمن أرسل الصناديق الذهبية حينما توقفنا في عرض المياه اليونانية .

صباح الغد 19 شباط جاءني نيدلاند إلى غرفتي هائجاً وقال :

– لم يختر هذا القبطان اللعين وقت غوصه إلا حين حددنا موعد هربنا .

فقلت له :

– نعم .. لأنه ذهب إلى المصرف .

– إلى المصرف ؟ ماذا تعني ؟ .

ورويت له حكاية الكنوز الذهبية ، فأسف لأنه لا ينال نصيباً منها ، ثم قال :

– ما هي إلا طعنة رمح خائبة وسوف تصيب في المستقبل .

صعدنا إلى المنصة وكان الجو غائماً ، ولاحظنا أن الغواصة تتجه إلى الجنوب الغربي مخلفة وراءها السواحل الأوروبية ، واهتاج نيدلاند ، أما أنا فشعرت بالارتياح واستأنفت أبحاثي السابقة .

حوالي الساعة الحادية عشرة مساء جاءني القبطان وقال :

– ما رأيك بجولة ليلية في أعماق البحار ، ولكنها مرهقة لأننا سنصعد الجبل .

– لقد أثرت فضولي ، إني جاهز للقدوم معك .

حين بدأت أرتدي بذلة الغوص لاحظت أننا وحدنا ، وبعد لحظات وطئت أقدامنا أرض الأطلسي والقبطان ممسك بيده قضيباً حديدياً يتوكأ عليه .

أشار القبطان إلى شعاع بعيد أحمر اللون ، وفهمت منه أنه هدفنا من هذه الجولة ، وبعد نصف ساعة من المسير أصبحت الأرض وعرة والصخور مسننة ، والقبطان غير مبال بما حوله يتقدم بثقة ، وقد انعكست قامته الطويلة على المياه بسبب ذلك الضوء المتوهج ، وكانت الساعة الواحدة صباحاً

حينما وجدنا أنفسنا في غابة كثيفة من الأشجار اليابسة . غابة حقيقية وليست من النباتات البحرية . فقطعناها مسرعين حتى وصلنا إلى سفح جبل تحيط به المنحدرات العميقة ، وكانت كل خطوة تحمل خطر الموت .

ما إن وصلنا إلى قمة الجبل حتى أشار القبطان إلى وسط غابة من الطحالب ، ثم انحدرنا ولم يتوقف القبطان عن المسير بل كان يشير إليّ بالإسراع للحاق به .

وقفت أتأمل القمة البعيدة التي يشع منها النور الأحمر ، وإذا هي بركان هائج يرمي حممه بين الأمواج وتحملها التيارات البحرية بعيداً .

وقطعنا مسافة قصيرة وكان البركان ينير لي الطريق ، فانفتحت أمامي سهول واسعة ، وامتدت فيها إلى الأفق مدينة كاملة من الأطلال والخرائب ، فالشوارع عريضة مرصوفة بالحجارة ، وأعمدة النباتات الشاهقة منهارة متناثرة ، وتستطيع أن تميزها ، فهذا المجلس الاستشاري ، وهذا

المسرح ، وذلك الملعب ... إنها مدينة هائلة قد زلزلت الأرض بها وابتلعتها المياه ، أين نحن ؟ وما هذه المدينة ؟

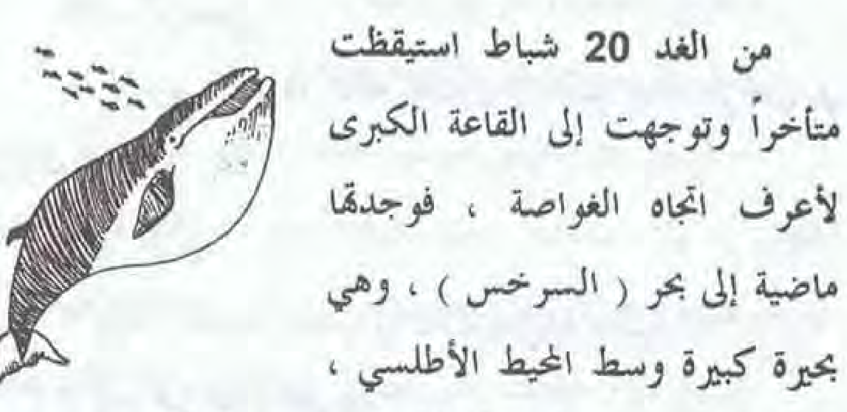
أمسك القبطان بقطعة من الحجر وكتب على الصخرة " أطلنطا " ، إنها الحضارة التي ذكرها أفلاطون وكانت مزدهرة في الدهور الغابرة .

هبطنا الجبل مسرعين ، ولم يطلع علينا الفجر إلا ونحن على متن الغواصة النوتيلوس .



الفصل الخامس

حيتان العنبر



من الغد 20 شباط استيقظت متأخراً وتوجهت إلى القاعة الكبرى لأعرف اتجاه الغواصة ، فوجدتها ماضية إلى بحر (السرخس) ، وهي بحيرة كبيرة وسط المحيط الأطلسي ، يحيط بها تيار من المياه الدافئة ، يدعى (غولف ستريم) ، وتنمو داخل هذه البحيرة نباتات السرخس على مد النظر ، وقد تجنب القبطان هذه البحيرة التي تشتبك نباتاتها في العنفة وتمنعها عن الحركة ، فغاص تحتها .

من صباح الغد وحتى 12 آذار أبحرت نوتيلوس وسط الأطلسي بسرعة مائة فرسخ بحري في الأربع والعشرين ساعة ، ولم يحدث أثناء ذلك شيء يستحق الذكر .

ويوم 14 آذار جاءني كونسيل ونيدلاند وسألني نيد :

– كم تظن عدد البحارة على متن النوتيلوس يا سيدي ؟

– لا أعرف يا صاحبي .

فقال كونسيل :

– لا ريب أن لها طاقة قصوى ، فكم عدد الرجال في رأيك ؟

– لا أدري .

– وإذا حسبت يا سيدي ذلك بطريقة علمية ؟

– وما هي هذه الطريقة ؟

– لا ريب أن كل فرد يستهلك كمية محددة من الهواء ، فإذا حسبنا حجم الغواصة ، وعرفنا الكمية اللازمة لكل شخص .. فقاطعته إذ عرفت قصده :

– إن الهواء الذي تخزنه النوتيلوس يكفي لستمائة وخمسة وعشرين رجلاً لمدة أربع وعشرين ساعة .

فهتف نيدلاند :

– ستمائة وخمسة وعشرين ؟

– ولكن ليس على متنها سوى عُشْر هذا العدد .

فهمس كونسيل :

– هذا العدد كثير على ثلاثة رجال .

وخرج الهندي وهو يهزّ رأسه .

فقال كونسيل وهو يتأمله مبتعداً :

– أرجو أن يتفهم سيدي حالته ، فهو ليس من رجال العلم ، ولا يسعده سوى البقاء مع أصدقائه في المقهى يسامرهم ، وهو لا يجد شيئاً يفعله على متن هذه الغواصة .

ولكن طرأ حادث أثار فضول نيدلاند ، إذ كان يتأمل المحيط ، ثم صاح وهو يقفز فرحاً :

– الحوت .. الحوت .. آه لو كنت على متن سفينة لصيد الحيتان لرأيتني كيف أفعل .. بدلاً من البقاء على ظهر علبة السردين هذه .

وسألته :

– ألم تصطد في هذه البحار يا نيد ؟

– لا بل اصطدت في البحار الشمالية .

– إذن أنت لا تعرف الحوت الجنوبي ؟

– لذلك أحب التعرف إليه ، آه .. إنه سرب من الحيتان .

فقال له كونسيل :

– لِمَ لا تذهب وتطلب الإذن من القبطان بالصيد ؟

ولم يكد كونسيل يلفظ هذه العبارة حتى اختفى نيدلاند ورجع والقبطان معه ، فقال نيد :

– ما رأيك أيها القبطان أن أصطاد بعضها ، سأنسى مهنتي إذا بقيت بدون عمل .

فقال القبطان نيمو :

– وما الفائدة من صيدها ؟ إنه القتل من أجل القتل .

ولا يمكنك أن تتخيل ملامح نيدلاند وهو يستمع إلى هذا الدرس في الأخلاق ، فسكت لحظة ثم أشار إلى الأفق قائلاً :

– أترى هذه الحيتان البعيدة ؟

– نعم إنها حيتان العنبر ، ويجب إبادتها .

– وإذن دعني أقم بهذه المهمة قبل أن تهاجم الحيتان المسالمة .

فقال القبطان نيمو :

– لا فائدة من تعريض نفسك للخطر ، ستقوم النوتيلوس بهذه المهمة بدلاً عنك ، تعالوا معي .

وهبطنا إلى حجرة القيادة ، فضغط القبطان على بعض الأزرار ، فبرز في مقدمة الغواصة سيف طويل حاد النصل ، وقال القبطان :

– هذا الرمح أقوى من رمحك وأشد فتكاً .

وهاجم القبطان حيتان العنبر وقطعها قطعاً صغيرة ، فإذا غرس سيف الغواصة في أحدها انتقل إلى الآخر حتى لم نعد نرى واحداً فيها يتحرك .

وصعدنا إلى المنصة ، وإذا الغواصة محاطة بالجثث والماء الأحمر حولها ، فقال القبطان مخاطباً نيد :

– ما رأيك ؟

– هذه مذبحة وليست صيداً ؟

– لكل امرئ سلاحه .

ونظر نيد إلى القبطان نيمو نظرة حاقدة ، فأدركت أن من واجبي الاحتراس منه ومراقبته عن كثب .

الفصل السادس

القطب الجنوبي

يوم الخامس عشر من آذار أبصرت الجليد العائم لأول مرة ، وكان القبطان نيمو أثناء هذه الرحلة يقف على المنصة دوماً ويوجه النوتيلوس بانتباه شديد بين كتل الجليد التي يبلغ بعضها عدة كيلو مترات طولاً وسبعين كيلو متراً ارتفاعاً .

وقد يبدو الأفق مسدوداً أمامنا ، ولكن القبطان نيمو يجد ممراً تنفذ منه الغواصة . وأعترف بأن هذه الرحلة قد أمتعتني ، إذ لم أكن أسأم من تأمل هذه الجبال العائمة التي تشبه المدن بأشكالها العجيبة .

يوم السابع عشر من آذار اجتازت الغواصة دائرة القطب الجنوبي واندفعت داخل الجبال الجليدية تشطرها بقوة ، وقد ترتفع فوق إحدى الكتل فتتحطم تحت ثقلها محدثة ضجة هائلة .

يوم الثامن عشر من آذار توقفت الغواصة وقد أحاطت بها الكتل الجليدية ، فسألني القبطان :

– ما رأيك يا سيدي الأستاذ ؟

– أظننا علقنا بين الكتل الجليدية .

– علقنا ؟ ماذا تقصد بذلك ؟

– أقصد أننا لن نستطيع الحركة .

– وتظن أن النوتيلوس غير قادرة على الحركة ؟

– نعم .. ولا أظن أن الكتل الجليدية ستذوب من حولنا .

فابتسم القبطان وقال :

– الغواصة ستتخلص من الكتل وتنطلق حتى القطب الجنوبي .

– القطب الجنوبي ؟

– نعم .. وأنا أستطيع التحكم في النوتيلوس كما أشاء .

وكنت أعلم أنه لم يصل أحد من قبل إلى القطب الجنوبي ، فسألته :

– هل وصلت إلى القطب الجنوبي من قبل ؟

– لا .. ولكننا سنكتشفه معاً .

– وهل ستحطم هذه الكتل الجليدية أم ستحلّق فوقها ؟

– بل سأغوص تحتها .

– ولكن كتل الجليد تغوص ثلاثة أرباعها تحت الماء .

– نعم .. وأنت ترى أن ارتفاعها لا يتجاوز المائة متر فيكون ما بقي منها ثلاثمائة متر ، وهذا عمق لا تعجز الغواصة عنه ، وأعتقد أن الهواء لن ينقصنا ، ولكن هناك مشكلة ، وهي كيف نخرج من تحت الماء ، لأن الجليد يتجمد على سطح القطب كله .

– وهل نسيت أن الغواصة مزودة برمح هائل قادر على اختراق سطحه ؟

بدأت الأجهزة تضغط الماء في الخزانات ، وغطسنا وكانت ساعات الغطس تشير إلى ثلاثمائة متر تحت الماء ، ثم أشارت إلى ثمانمائة متر والغواصة تسير إلى القطب الجنوبي .

من صباح الغد أشارت ساعات الضغط إلى أننا نصعد ببطء نحو السطح ، وأحسست بصدمة ، إذ أن الغواصة لامست الجليد وهي على عمق ثلاثمائة متر ، وبدأت تكسر هذا السقف فوقها ، وحين رقدتُ مساءً كان سمك السقف خمسين متراً فقط . استيقظت الساعة السادسة صباحاً لأجد القبطان نيمو يفتح باب غرفتي ويقول :

– إننا على السطح يا أستاذ أرونكس !

وهُرعت إلى المنصة لأرى البحر يمتد أمامنا حتى الأفق ، وقد انتشرت فيه الكتل الجليدية ومئات الطيور تحلق فوقنا ، والأسماك تعوم بعشرات الأنواع .

وسألته :

– هل نحن في القطب الجنوبي ؟

– لا أعرف بعد .. سنجري حساباتنا حين تخترق الشمس الضباب .

بعد ساعة كانت قناةٌ ضيقةٌ تمتد بيننا وبين البر ، فأُنزل القاربُ إلى الماء ، وحمل القبطان مع اثنين من البحارة الأجهزة ، فركبت مع كونسيل القارب ، وظل نيدلاند في حجرته .

ووصلنا الساعة العاشرة إلى الشاطئ الرملي ، وقلت للقبطان :

– تفضل بالنِزول أولاً ، لتكون أول رجل يطأ القطب الجنوبي بقدميه .

فوثب القبطان بخفة إلى الرمل ، وتسلّق صخرة عالية ، فوقف عليها وقد صالب ذراعيه ، وعيناه تنظران إلى السماء كأنه يمتلك هذه المساحات كلها .

ثم هبطت مع كونسيل ، فوجدت الشاطئ مملوءاً بالأصداف ونجوم البحر ومئات الطيور البحرية تحلق في الجو ،

وخاصة طيور النورس ، وفوق الصخور أسراب من طيور البطريق تسدّ الأفق .

حتى الساعة الحادية عشرة لم تظهر الشمس بعد ، ويستحيل علينا أن نعرف ما إذا كنا في القطب الجنوبي أم لا ، فاقتربت من القبطان نيمو الذي جلس مستنداً إلى صخرة ينتظر طلوع الشمس .

تكاثفت الغيوم في الساعة الثانية عشرة ، واشتد البرد حتى اضطررنا إلى العودة إلى الغواصة ، وقال القبطان وقد قطب حاجبيه :

– إلى الغد !

وهبت عاصفة ثلجية شديدة استمرت حتى الغد ، وسَرَت النوتيلوس ليلاً ، فقطعت عشرين كيلو متراً نحو الجنوب .

وفي يوم 20 آذار صباحاً انقشع الضباب ، وانتظرنا طلوع الشمس .

هبطت الساعة الثامنة إلى البر مع كونسيل ، فوجدنا أسراباً كثيرة من الحيوانات البحرية من فصيلة الثدييات ، وخاصة الدلافين التي كانت تنظر إلينا بعيونها اللامعة .

فقال كونسيل :

– إني مسرور لأن نيدلاند لم يصحبنا .

– ولماذا ؟

– لأن هذا الصياد المسعور سيصطادها جميعاً !

– ولكن هل عرفت هذه الثدييات يا كونسيل ؟

– ليتفضل سيدي بذكر أسمائها .

– إنها الفَقَمة والمورس أو فيل البحر ، وهي من الثدييات ذوات العمود الفقري .

– لنذهب لرؤيتها عن قرب .

وتجولنا بين هذه الحيوانات التي كانت تتقافز في الماء بأعداد هائلة ، بعضها يتسلق الصخور ، وبعضها ينام هانئاً على الشاطئ ، وأما فيل البحر فهو حيوان ضخم له خرطوم قصير ، ولم يأبه لقدومنا إطلاقاً .

من بعيد ، رأينا قطيعاً من هذه الفيلة البحرية ، فصعدنا إحدى القمم وتأملناها كأنها بحر متلاطم من الحيوانات ذات اللون الوردي والأنياب العاجية ، وقلت لكونسيل :

– حان وقت العودة إلى النوتيلوس ، لأني أريد مشاركة القبطان في رصد الشمس .

ومشينا بضع دقائق ، وإذا القبطان فوق صخرة مرتفعة وبجانبه أجهزته .

كانت الساعة الثانية عشرة ولم تظهر الشمس ، وغداً هو الواحد والعشرون من آذار ، يوم الاعتدال الخريفي ، فإذا لم تظهر الشمس فيه لنقيس ارتفاعها ، فلن تظهر إلا بعد ستة أشهر ولن نعرف موقعنا أبداً .

وأفضيت إلى القبطان نيمو بما جال في خاطري ، فقال :

– أنت على حق ، ولكن إذا ظهرت الشمس غداً الساعة الثانية عشرة فسوف يَسْهُل عليَّ قياس موقعنا .

تجولنا قليلاً ، فحمل كونسيل بعض بيوض طائر البطريق ، وحملها بيده كأنها آنية ثمينة من الخزف الصيني ،

ونقلها إلى النوتيلوس حيث وضعها في إحدى الواجهات الزجاجية .

الساعة السادسة من صباح الغد ، صعدت إلى المنصة فوجدت القبطان نيمو ، فقال لي :

– أرى الطقس يتحسن ، وسوف ننزل إلى البرّ بعد ساعتين لنختار موقعاً نرصد الشمس منه .

فهبطت إلى غرفة نيدلاند لأقنعه بمرافقتنا ، ولكنه رفض بعناد ، ولاحظت أن مزاجه يزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

نزلنا إلى البر الساعة التاسعة ، وكانت السماء صاحية والغيوم تنقشع إلى ناحية الجنوب ، فتوجه القبطان نيمو إلى ذروة هضبة اختارها ليرصد منها الشمس .

وكان الصعود إلى هذه الصخور البازلتية شاقاً ، والجو مشبع بغاز الكبريت المتصاعد من الوادي ، وبقينا ساعتين حتى تسلقنا الهضبة ، فأشرفنا على سهول لا نهاية لها من الثلوج الممتدة نحو الجنوب . وأما في الشمال فكان قرص الشمس يتراقص في الأفق .

وسارع القبطان إلى أجهزة الرصد فضبطها ثم نظر فيها ، والتفت إليّ مبتسماً وقال :

– منتصف النهار !

ودعاني إلى الجهاز فنظرت فيه ، فرأيت الأفق يشطر قرص الشمس شطرين متساويين : إننا في القطب الجنوبي .

هرول القبطان نيمو إلى الغواصة ، ثم عاد ومعه عَلَم صغير أسود اللون ، في وسطه حرف النون ، فغرسه في الأرض وهو يصيح :

– أنا القبطان نيمو ، وصلت إلى القطب الجنوبي يوم 21 آذار سنة 1868 ، وإني أملك سدس الكرة الأرضية .

ثم التفت نحو الشمس وقال :

– وداعاً أيتها الشمس ! ارقدي على هذا البحر الحر ، ودَعي ستة أشهر من الليل تمتد على قارتي الجديدة .

الفصل السابع

نقص الهواء

غادرت النوتيلوس المنطقة يوم 22 آذار ، الساعة السادسة صباحاً . وقد بدأ البرد يشتد لاقتراب الظلام ، وهاجرت الدلافين والطيور من المنطقة بحثاً عن مكان أكثر دفئاً ، ولم يبق فيها سوى الفقمات وفيلة البحر ، وغطست الغواصة إلى عمق ثلاثمائة متر ، وقد أسدلت الستائر الحديدية على النوافذ تحسّباً لصدمات الكتل الجليدية ، فبقيتُ في المكتبة أحرر مذكراتي ، وقد اختلطت في رأسي مراحل هذه الرحلة ، وخاصة زيارتنا الأخيرة إلى القطب الجنوبي ، وغلبني النعاس وأنا أحلم بها .

استيقظت الساعة الثالثة على صوت هائل وصدمة كبيرة رمتني إلى وسط الغرفة ، وكانت النوتيلوس ساكنة وقد انقلبت على جانبها ، وتعالت أصوات البحارة ، ودخل كونسيل ونيدلاند فسألتهما :

– ماذا حدث ؟

فقال كونسيل :

– جئنا نسألك نحن .

فقال نيدلاند :

– أرى أن الغواصة قد انقلبت ولن ننجو هذه المرة كما حدث في مضيق توريس .

ونظرت إلى مقياس العمق ، فوجدته يشير إلى ثلاثمائة متر .

وهتفتُ :

– ما معنى هذا ؟

وبحثنا عن القبطان فلم نجده ، لعله في غرفة القيادة .

بعد عشر دقائق ، دخل القبطان نيمو وقد ظهر عليه القلق . ونظر إلى الساعات وهز رأسه ، ثم التفتَ إليّ ، فسألته :

– هل هو حادث عارض ؟

– لا .. بل حادث أكيد .

– خطير ؟

– ربما ..

– وما سببه ؟

– ليس سببه خطأ في الملاحة يا أستاذ أرونكس .. ولكن حين يسخن قاع كتلة الجليد تنقلب رأساً على عقب ، وقد انزلقت إحداها تحت النوتيلوس ، ونحن نرتفع الآن إلى أعلى .

بعد قليل ، انحصرت الغواصة بين القاع والسطح ، ولم تعد قادرة على الحركة ، إذ أحاط بها الجليد من كل صوب .

الساعة الخامسة صباحاً ، حاولت الغواصة أن تفتح طريقاً بالرجوع إلى الوراء فلم تنجح ، فتقدمتْ إلى الأمام وصدمت الحاجز الجليدي فلم ينكسر .

بعد لحظات دخل القبطان نيمو إلى القاعة ، فسألته :

– هل سُدّت المنافذ أمامنا يا قبطان ؟

– نعم .

وسأله نيدلاند :

– ما العمل إذن ؟

فقال القبطان وكأنه يشرح درساً في الرياضيات لتلاميذه :

– أيها السادة .. نحن بين أمرين : إما أن نموت تحت ثقل الكتل الجليدية ، أو نموت بالاختناق لنقص الهواء .

فقلت له :

– لا نخشى الاختناق لأن خزانات النوتيلوس مملوءة بالهواء .

فقال القبطان :

– نعم .. ولكننا تحت الماء منذ ست وثلاثين ساعة ، وسوف يُستهلك الاحتياطي خلال يومين .

– وإذن .. علينا أن نخلّص الغواصة خلال يومين .

– سنكسر جدار الجليد ، وسوف ينْزل الرجال ببدلات الغوص ليسبروا أقل الجدران سماكة .

وخرج القبطان ، فقلت لصاحبيّ :

– إننا الآن في وضع حرج ، ولا بد أن نتحلّى بالشجاعة والصبر .

فقال نيدلاند :

– ليس الآن وقت الشكوى ، ولكني أُحسن استخدام المعول ، وسوف أضع نفسي تحت تصرف القبطان .

فشددت على يده وأنا أقول :

– نعم .. يُعرف الرجال وقت الشدائد .. هيا بنا !

وكان بحارة النوتيلوس يرتدون بدلات الغوص ، فانضمّ نيدلاند إليهم ، وخرجوا إلى العمل ومعهم القبطان نيمو الذي يتفحص الجدران الجانبية . وبعد خمسة عشر متراً من الحفر وجدوه سميكاً . ولم يفكروا بثَقْب السقف لأنه جبل من الجليد ، فرأوا أن يحفروا الأرضية التي يفصلها عن الماء عشرة أمتار ، ويجب أن يحفروا تحت النوتيلوس كي تخترقَ الأرضية

وتعوم في الماء . ولكن القبطان آثر أن يكون الحفر أمام الغواصة لكي يكون عملهم أوضح ويمكن قياسه ، ولا يكون الحفر تحتها .

بعد ساعتين من العمل المتواصل رجع نيدلاند مرهقاً ، فمضيت أنا و كونسيل وأخذنا مكانه في فريق العمل الذي كان يقوده مساعد القبطان .

وحين رجعت بعد ساعتين ، وجدت الاختلاف كبيراً بين جو الغواصة وبين الهواء المضغوط الذي كنا نتنفسه من أجهزة الغوص .

وتناوبتْ فرق العمل خلال أربع عشرة ساعة ، فلم يحفروا سوى متر من الجليد ، وإذا استمر الحال على هذه الوتيرة ، يلزمنا خمس ليال وأربعة أيام لاختراق الأرضية الجليدية .

من الغد ، لاحظت أن جدران الجليد تقترب من الغواصة وتجعل درجة الماء حولها ست درجات تحت الصفر ، فإذا

استمر الحال على هذا المنوال انطبق الجليد على الغواصة وحطمها تحطيماً .

وأفضيتُ إلى القبطان نيمو بمخاوفي ، فقال بهدوئه المعتاد : أعرف ذلك ، ولكنني لم أجد وسيلة أجنّب بها النوتيلوس هذا المصير ، علينا الإسراع في العمل ، هذا كل ما بوسعنا ..

من الغد 26 آذار ، لاحظت أن الجدران المحيطة بالغواصة تزداد انطباقاً ، وسوف تنغلق عليها تماماً قبل الانتهاء من الحفرة .

شعرت باليأس يجتاحني ، ومرّ القبطان بجانبي فسألته عن احتياطي الهواء ، فحدّق إليّ ثم قال :

– ستكون الخزانات فارغة بعد غد .

وشحب وجهي ، لقد كنت على علم مُسبق بذلك ، ولكن حضور الخطر يختلف عن توقعه . ولمحت وجه القبطان قد تغيّر قليلاً ، ثم ابتسم وهو يصيح : الماء المغليّ .

– الماء المغليّ !



– نعم يا أستاذ .. أليس الماء المغلي الذي تدفعه المضخات يرفع درجة الحرارة من حول النوتيلوس ؟

فقلت مبتهجاً :

– فلنحاول !

ومضيتُ معه إلى المطبخ حيث المرَاجل المعدة لتقطير الماء ، فأشعلها القبطان حتى بلغت حرارة الماء مائة درجة ، وبدأ يضخه حول النوتيلوس ، فانخفضت الحرارة درجة واحدة .

وما زال يضخ الماء وهو يقول :

– لقد نجحنا .. لن تتحطم النوتيلوس .

وصلت درجة الحرارة حول الغواصة درجة فوق الصفر وزال الخطر ، لأن ماء البحر لا يتجمد إلا في الدرجتين تحت الصفر .

من صباح الغد ، كان عمق الحفرة خمسة أمتار . وما يزال أمامنا يومان من العمل وهواء الغواصة لا يمكن تجديده .

حوالي الساعة الثالثة شعرت بثقل في أطرافي ، فاستلقيت على الأرض غير قادر على الحركة .

وكم فرحت حين جاء دوري للعمل خارج الغواصة ، لأني سأتمتع بتنفس الهواء النظيف .

آخر النهار ، كان بيننا وبين الماء متران من الجليد ، ولكن الهواء المضغوط مخصص للعمال فقط ، ولا شيء منه للغواصة ، فقضيت الليل أتعذب أشد العذاب وأتنفس كالمخنوق .

صباح اليوم التالي ، اتخذ القبطان نيمو قراراً بأن تحطم الغواصة طبقة الجليد الباقية لكي نربح ساعات ثمينة ، فقد أشرفنا على الهلاك لنقص الهواء .

دخل الجميع إلى الغواصة ، وملأت الخزانات بالماء ليزداد ثقلها مائة طن ، وسمعتُ بعد قليل ضجة هائلة كأنها القماش يتمزق ، وأهوت النوتيلوس على طبقة الجليد بكل ثقلها .

ثم بدأت المضخات تطرد الماء المخزون ، واندفعت المروحة تسوق النوتيلوس بأقصى سرعتها . وكنت متمدداً

على الكرسي وقد ازرقت شفتاي وتراقصت الصور أمامي ، ورأيت الموت ..

وفجأة هبّت عليّ نسمة قوية من الهواء المنعش الذي اجتاح النوتيلوس .. لقد صعدنا إلى سطح الماء .

الفصل الثامن

الأخطبوط

لم أدر كيف وصلت إلى المنصة فوق سطح النوتيلوس ، ولعلّ نيدلاند حملني إليها ، وكنت أملأ رئتي بهواء البحر المنعش .

وقال كونسيل :

– آه .. ما ألذ هواء البحر ! ليتنفس سيدي ملء رئتيه دون خوف ، لأن الهواء متوفر بكثرة الآن .

وأما نيدلاند ففتح شدقه على آخره كأنه فم سمكة القرش ، واستنشق ما قدر عليه من الهواء ، ثم قال :

– ألست على حق حين أطلب منكما مغادرة علبة السردين هذه ؟

فقال كونسيل :

– نعم .. وسوف أتبعك على شرط أن يسبقني سيدي ، لأني أذهب حيث يذهب .

وسألني نيدلاند :

– في أي اتجاه سنمضي الآن ؟

فقلت :

– في اتجاه الشمس .. نحو الشمال .

فقال نيدلاند :

– نعم .. ولكن هل نتجه إلى المحيط الهادي أم الأطلسي ؟ نحو البحار المأهولة أم المهجورة ؟

ولم أجبه لأني أخشى أن يكون القبطان نيمو عازماً على المُضيّ بنا إلى المحيط الهادي ليستكمل دورته حول العالم ، وبذلك تفشل خطط نيدلاند كلها .

يوم 31 آذار ، كانت النوتيلوس تبحر بأقصى سرعتها نحو (كاب هورن) ، ولم يعد يظهر القبطان نيمو ، ولاحظت أننا نتوجه إلى المحيط الأطلسي .

من الغد ، الأول من نيسان ، صعدت النوتيلوس إلى سطح البحر بجانب المنطقة المسماة (أرض النار) ، ورأيت منحدرات (سارمنتو) ، وسألني نيدلاند عن موقعنا ، فقلت :

– إننا الآن بمحاذاة جزر (الملوين) التي يدعوها الإنكليز (فوكلاند) .

ثم غطست النوتيلوس عدة أيام وهي تمخر بمحاذاة السواحل الأميركية بسرعة جنونية .

وأدرك نيدلاند أنها تتحاشى سواحل البرازيل المأهولة .

صعدت النوتيلوس يومَي 11 و 12 نيسان إلى السطح قرب جزيرة (غويان) الفرنسية ، وقد اصطاد البحارة كمية من الأسماك ، وفيها سمكة مسطحة كاملة التدوير بيضاء الظهر ، بطنها أحمر ، عليه بقعة زرقاء ، فأُعجب بها كونسيل كثيراً ، وأمسك بها ليضمها إلى مجموعته ، ولكنه سقط على ظهره وكأنما شُلت يداه ، وصاح :

– النجدة يا سيدي .. أرجوك !

وكانت هذه المرة الأولى التي يخاطبني فيها بضمير المتكلم ، وسارع إليه نيدلاند يفرك يديه ويهدئ مِنْ رَوْعه ، فقلت له :

– إنها سمكة الطوربيد .. من فصيلة (الكومانا) ، وهي قادرة على كهربة الأسماك على مسافة أمتار .

فصاح كونسيل :

– سآخذ ثأري منها .

– وكيف ؟

– سآكلها مشوية .

ولكنه ارتكب خطأً جسيماً إذ أصر على الانتقام منها لأن لحمها متين كجلد النعل .

ابتعدت النوتيلوس عن السواحل الأمريكية ، وكان واضحاً أن القبطان نيمو يتجنب خليج المكسيك وجزر الأنتيل .

في السادس عشر من نيسان ، كنا على مقربة من جزر المارتنيك الفرنسية ، وتأملها نيدلاند وهو يتحسر لأننا كنا في عُرض البحر .

في المساء عقدنا اجتماعاً ، أنا وكونسيل ونيدلاند ، تدارسنا خلاله حالتنا ، فقد لبثنا ستة أشهر سجناء على متن النوتيلوس ، قطعنا خلالها سبعة عشر ألف فرسخ ، فهل سنظل على متنها إلى الأبد ؟ واقترح عليّ نيدلاند أن أطرح هذا السؤال مباشرة على القبطان نيمو .

وكان رأيي أن هذا سيثير شكوك القبطان ويعقّد الأمور ، خاصة وأنه أصبح يبتعد عنا في الأيام الأخيرة ، فلا خلاص لنا إلا في الاعتماد على أنفسنا . وطلبت مهلة للتفكير .

في العشرين من نيسان كانت النوتيلوس تنسرب في المياه المحاذية لولاية فلوريدا الأمريكية ، وكانت مياهها عامرة بالصخور الضخمة .

ولفت نيدلاند انتباهي إلى فوران الماء ، وثورانه حول الطحالب الفسيحة ، فقلت له :

– أظن أنها مغارات عامرة بحيوان الأخطبوط ، ولا يدهشني أن نرى بعضها .

فقال كونسيل :

– سنصطاد حيوان (الكالمار) إذن ؟

فقلت :

– لا .. إنه الأخطبوط العملاق ، ولعل صديقي نيد قد أخطأ لأني لا أرى منها شيئاً .

– آه .. كم أتمنى رؤية أحد هذه الحيوانات الهائلة التي ذكرتها الأساطير الاسكندنافية ، وهي تُغرق السفن الكبيرة .

فقال نيد :

– هذه حيوانات لا وجود لها إلا في الخيال .

وقال كونسيل :

ولكني رأيت أحدها وهو يجرّ إحدى السفن إلى أعماق المياه .

فسخر منه نيدلاند قائلاً :

– أين رأيته ؟ لعلك رأيته في ميناء (سان مالو) ؟

فقال كونسيل :

– لا .. بل في الكنيسة .

– في الكنيسة ؟

– نعم .. رأيته مرسوماً على لوحة جدارية فيها .

وضحكنا جميعاً .

التفتنا إلى النافذة وإذا عدد من حيوانات الأخطبوط قد ألصقت أذرعتها بالغواصة وهي تتلوى ، فتراجعنا من وَقْع المفاجأة ، وكان فمها ينفتح عن لسان مزوّد بأسنان دقيقة . وفجأة توقفت الغواصة ، وبعد دقائق دخل القاعة القبطان نيمو يتبعه مساعده ، ونظر إلى النافذة ثم قال شيئاً لمساعده فخرج ، فقلت له بلهجة هادئة :

– هذه مجموعة من حيوان الأخطبوط .

– نعم .. وسوف نشتبك معها في القتال الآن ، لأن أحدها قد التف حول المروحة فأوقف حركتها ، فيجب أن نصعد إلى سطح الماء ونتخلص من هذه الحيوانات القبيحة .

فقلت له :

– ولكن الاشتباك معها مباشرة أمر خطير .

– أعلم ذلك .. فالرصاص لم يؤثر في أجسامها المطاطية ، وسوف نهاجمها بالفؤوس .

وقال نيدلاند :

– إن رمحي جاهز ، فهل تقبل مساعدتي ؟

– بكل سرور يا نيدلاند !

وقلت له :

– إننا آتون معك .

وانتظرنا عند السلم الرئيسي حيث عشرة رجال يحملون الفؤوس .

وطفت النوتيلوس على وجه الماء ، وما كادت صواميل الغطاء تُفكّ حتى جذبه الأخطبوط جذبة قوية وانزلقت إحدى أذرعه الطويلة داخلَ الفتحة ، وتبعتها عشرون ذراعاً أخرى . وبضربة فأس قطع القبطان نيمو إحداها ، فسقطت تتلوى بين أقدامنا .



ما إن اندفعت جماعتنا إلى السلم حتى امتدت ذراع والتفت حول أحد الرجال ورفعته بقوة هائلة ، فأطلق القبطان نيمو صرخة عظيمة وصعد إلى المنصة ، وكان الرجل معلقاً في الهواء والذراع تعصر جسده وهو يحاول التخلص منها صارخاً :

– النجدة .. النجدة !

وقد ذُهلتُ وهو ينطقها باللغة الفرنسية ، ففي الغواصة إذن أحد أبناء بلدي ، ولعل فيها سواه ، ولن أنسى هذا النداء المريع طول حياتي .

وهجم القبطان نيمو على الأخطبوط وقطع له ذراعاً أخرى ، وكنا مشغولين بمهاجمة الحيوانات التي تزاحمت على المنصة ، وقد تناثرت قطع اللحم في كل مكان ، وانتشرت رائحة مقززة .

وكان المشهد مريعاً ، وكدنا نخلص المسكين من أذرع الأخطبوط بعد أن قطعت كلها ، ورفع القبطان ومساعده فأسيهما كي ينهالا على ذراعه الأخيرة بضربة واحدة ، ولكنه

نفث مادة سوداء في وجوهنا أعمت أبصارنا . وحين فتحنا أعيننا اختفى حاملاً معه الرجل إلى عمق المحيط .

هاجت نفوسنا حقداً وغضباً وانهالت فؤوسنا على الحيوانات تقطع أوصالها ، وغرقنا في الدم والحبر الأسود ، وكان نيدلاند يطعن برمحه عيونها الزجاجية ، والتفت إلى أحدها ففاجأه فاغراً فمه وكاد ينتزع يده ، فسارعتُ إليه ، ولكن القبطان سبقني بضربة فأس إلى أسنانه . ونهض الكندي فغرس رمحه إلى آخره في قلب الأخطبوط .

اختفت الحيوانات في الماء مهزومة متقطعة الأوصال ، ووقف القبطان نيمو وهو مغطى بالدماء ينظر إلى البحر الذي خطف أحد رفاقه والدموع تسيل على خديه ..

الفصل التاسع

تيار الخليج



لن أنسى تاريخ العشرين من شهر نيسان ، وسيظل محفوراً في ذاكرتي ما حييت .

عاد القبطان نيمو إلى غرفته ولم أره لوقت طويل ، إذ فقد ثاني رجل منذ ركوبنا النوتيلوس . ولكن هذا الثاني لم يرقد في مقبرة المرجان ، وكان ألمه عظيماً ، فقد بدأت النوتيلوس تتجول عشوائياً ، ولا تبتعد كثيراً عن موقع هذه المأساة .

ولم تتخذ الغواصة اتجاهاً محدداً إلا أول شهر أيار ، إذ صعدت نحو الشمال ، وسارت مع تيار الخليج المدعو :

" غولف ستريم " ، وهو نهر من الماء المالح يخترق المحيط الأطلسي ، وتغدو مياهه دافئة في المنطقة الاستوائية لخليج المكسيك ، وتأخذ طريقها صُعُداً حتى (تيرنوف) ، حيث تلتقي بتيار (لابرادور) البارد ، ثم تتوزع إلى عدة فروع ، وأهمها يرطب أجواء السواحل الأوروبية . ويعتقد أحد العلماء أن الحرارة الكلية لهذا التيار كفيلة بإذابة جبل من الحديد يسيل بحجم مياه نهر الأمازون .

في الثامن من أيار ، تابعت النوتيلوس تجوالها العشوائي وكأنها متروكة لذاتها ولا قائد يسيرها . وكان ينبغي لنا أن ننتهز هذه الفرصة لكي ننجز خطة هربنا على الرغم من بُعدنا عن السواحل الأميركية .

وحين اقتربنا من هذه السواحل هبت العواصف الشديدة التي لا يمكن لقارب صغير الصمود أمامها ، وكان نيدلاند مدركاً هذا الخطر ، ولكنه لم يثنه عن عزمه إذ وصل إلى منتهى صبره ، فجاءني ذات يوم ، وقال :

– يجب أن نحسم المسألة يا سيدي ، ويكفيني القطب الجنوبي ، ولن أتبع نيمو هذا إلى القطب الشمالي .

فقلت له :

– ما العمل يا نيد ؟ فالهرب مستحيل الآن .

– أعود إلى فكرتي السابقة وهي أن نكلم القبطان ، فالغواصة ستسير بمحاذاة نهر (سان لوران) من منطقة الكيبك ، بلدي الحبيب . وإذا لم يستجب لي فسوف أرمي بنفسي في البحر ، ولا طاقة لي بالبقاء .

وفكرت بأن الشاب على حق ، فقد طال غيابنا عن أوطاننا ، ونحن نتجول في الغواصة منذ سبعة أشهر ، ولا تصلنا أنباءٌ عن أهلنا ووطننا ، ولا يصبر على هذه الحال سوى كونسيل الذي لم يُظهر الشكوى .

ولاحظ نيدلاند صمتي فقال :

– ماذا قررت يا سيدي ؟

– سأكلم القبطان نيمو .

– متى ؟

– حين أراه .

– لا .. بل تكلمه الآن ، وإلا ذهبت أنا لرؤيته .

– حسناً .. سأكلمه اليوم .

سمعتُ خطوات القبطان في غرفته ، فطرقت الباب عدة مرات فلم يجبني ، ففتحته ودخلت لأجده منكبّاً على أوراقه .

فرفع رأسه وقال :

– ماذا تريد ؟

– أريد أن أكلمك .

– لا وقت لدي .. إني مشغول ، هل ترى هذه الأوراق ؟ إنها محررة بعدة لغات وفيها ملخص حياتي ودراساتي ، وسوف أضعها في أسطوانة محكمة الإغلاق تطفو على الماء ، وسوف يرميها آخر رجل يبقى من طاقم النوتيلوس .

فقلت له :

– ولكنها طريقة بدائية ، ولم لا يتكفل أحدنا بنقلها ؟ إذا أطلقت سبيلنا وأعطيتنا حريتنا .

– حريتكم ؟

– نعم .. وقد جئت أكلمك في هذا الموضوع .. فنحن منذ سبعة أشهر نتجول معك ، فإلى متى سنظل هكذا ؟

– جوابي اليوم هو جوابي منذ سبعة أشهر ، فمن يدخل النوتيلوس لا ينبغي له مغادرتها أبداً .

ووقف وقد وضع يده وراء ظهره . فقلت له :

– إن رجلاً مثلي قد يسره البقاء معك ، لأني معجب بعبقريتك وابتكاراتك ، ولكنّ رجلاً مثل نيدلاند لا يمكن احتجازه إلى الأبد ، وقد يفعل بنفسه أمراً مكروهاً .

– ليفعل ما يشاء ، فلا يهمني أمره . واعلم أنك إذا كلمتني في هذا الموضوع مرة ثانية فلن أصغي إليك .

فنقلت إلى صاحبيّ ما دار بيني وبين القبطان ، فقال نيدلاند :

– إننا واثقون الآن أنه لا يمكن توقع الخير من القبطان ، وما علينا سوى تنفيذ ما نقدر عليه .

يوم الثامن عشر من نيسان هبّ إعصار قوي والنوتيلوس في عُرض مياه نيويورك ، وخطر للقبطان نيمو لنَزوة لا أعرف سببها أن يواجه الإعصار بدل أن يغوص في الماء . فوقف فوق المنصة والرياح تعصف من حوله والأمطار تتهاطل بغزارة ، والنوتيلوس تتقاذفها الأمواج كأنها قارب صغير .

وحوالي الساعة الخامسة ، اشتدت قوة الرياح حتى بلغت سرعتها مائة وخمسين كيلو متراً في الساعة ، وعلت الأمواج حتى خمسة عشر متراً . ويُذكَر أنه في سنة **1864** هبّ هذا الإعصار على مدينة (يدو) اليابانية فدمرها ، ثم تحطم على الساحل الأميركي وسرعته سبعمائة كيلو متر في الساعة !

قبل الغروب رأيت سفينة ضخمة تصارع الأمواج ، وأظنها تربط ما بين نيويورك وميناء (الهافر) ، ثم اختفت عن الأنظار .

الساعة العاشرة مساءً ، اشتعلت السماء بالبروق حتى حسبت نفسي في وضح النهار ، وارتجّت الآفاق لقصف الرعود ، واختلط هديرها باصطخاب الموج وهطول المطر .

وكان (الغولف ستريم) مشهوراً بعواصفه ، وحين رفعت النوتيلوس رمحها الطويل إلى السماء ، فكأنها تستدعي إليها البروق والأعاصير ، وكأن القبطان نيمو يبحث لنفسه عن مِيتةٍ كريمة تحت البرق اللامع . فزحفتُ وقد انهارت قواي وهبطت إلى داخل الغواصة ، وكان يستحيل الوقوف فيها ، ثم نزل القبطان حوالي منتصف الليل ، وغاصت النوتيلوس في أعماق الماء ، وقد بلغت شدة الإعصار حداً اضطرها إلى الغوص خمسين متراً لتجد المياه الساكنة .

ورمت هذه العواصف بالغواصة بعيداً عن السواحل الأميركية والكندية .

بذلك فَقَد نيدلاند كل أمل في الفرار ، فأغلق باب غرفته ولم يخرج منها عدة أيام ، وساحت النوتيلوس على هواها بين حطام السفن الغارقة ، وكأنها شاهدة على الموتى .



يوم 15 أيار وصلت النوتيلوس إلى عُرض مياه (تيرنوف) ، واخترقت أسراباً هائلة من سمك (المورة) ، فقال كونسيل :

– ما أكثر عددها ! لا ريب أنها تبيض بكثرة .

– وكم تقدّر بيض كل سمكة منها ؟

– خمسمائة ألف بيضة .

– بل أحد عشر مليون بيضة يا ولدي !

– أحد عشر مليون بيضة ؟ لا أصدّق حتى أعدّها .

– عُدّها حين تستطيع ، ولكنك سترجع إلى رأيي .

فقال كونسيل :

– ما يقوله سيدي هو الصواب ، ولكني ألاحظ أنه تكفي أربع سمكات منها إذا عاشت كل بيوضها لإطعام قارة واسعة .

اتجهت الغواصة شرقاً وكأنها تريد الوصول إلى الجزر البريطانية .

وظلت يوم **13** أيار تتجول حول نقطة معينة وكأنها تبحث عنها .

ورأيت القبطان نيمو ظُهراً وقد بدت عليه الكآبة ، وكأنما تثير لديه هذه السواحل الأوروبية ذكريات حزينة ، وكان لدي الإحساس بأن المصادفة ستكشف لي هذا السر الذي يخفيه عني .

من الغد أول حزيران ، صعدتُ إلى المنصة قبل الظهر ، وكان البحر هادئاً والسماء صافية ، وفي الشرق سفينة كبيرة تعبُر الأفق ، ورأيت القبطان نيمو يمسك السُدْسية ويأخذ مقاييس محددة ، ثم هتف :

– المكان هنا .

ورجعتُ إلى القاعة ، فغاصت النوتيلوس بشكل عمودي ثم توقفت محركاتها ، وبعد دقائق كانت رابضة في قاع البحر ، ثم رُفعت ستائر النوافذ وأضيئت الأنوار الكاشفة ، فجذب انتباهي كتلة ضخمة قد التفت حولها الطحالب وتراكمت عليها المحارات ، وتفحصتها جيداً وإذا هي شكل سفينة .

ما هذه السفينة ؟ ولِمَ تقف النوتيلوس في موقع غرقها ؟

وارتفع صوت القبطان بجانبي :

– قديماً كان اسم هذه السفينة " المارسيلي " .. وفي سنة **1794** أعيدت تسميتها ، وكانت أثناء الثورة الفرنسية تحمل شحنة كبيرة من القمح واردةً من أميركا ، فتصدى لها الأسطول البريطاني ، فآثرت الغرق على الاستسلام للأعداء ، وبحارتها يهتفون : " عاشت الجمهورية ! " .

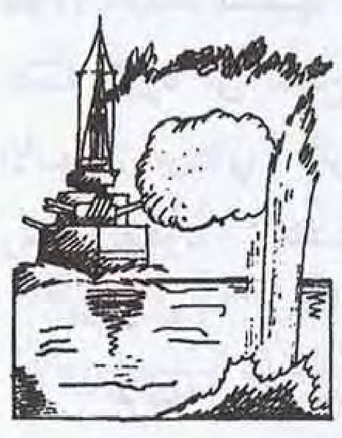
فقلت له :

– عرفتها .. إنها سفينة " المنتقم " !

– نعم .. يا سيدي ، إنها " المنتقم " ، ويا له من اسم جميل .

الفصل العاشر

آخر ما قاله القبطان نيمو



نظرت إلى القبطان نيمو وهو يحدق في حطام السفينة المجيدة ، ولم ألمح فيه الرجل العالم ، بل الإنسان .. لا ، إنه لم يعتزل الناس إلاّ لأنّ الحقد تأكّل كبده ، وقد فضح اسم السفينة " المنتقم " حقده هذا .

وطفت النوتيلوس إلى السطح بهدوء . في تلك اللحظة سمعت صوت طلقة مكتوماً ، فالتفت إلى القبطان فلم يتحرك ، وناديته فلم يُجب ، فصعدت إلى المنصة حيث وجدت كونسيل ونيدلاند ، وسألت :

– ما مصدر هذه الطلقة ؟

– هذه قذيفة مدفع .

وكانت السفينة التي رأيتها في الأفق متجهة نحونا :

– ما هذه السفينة يا نيد ؟ هل تعرف جنسيتها ؟

فحدق إليها الكندي ثم قال :

– ليس عليها راية بلدها ، ولكن البيارق المثبتة على صواريها تشير إلى أنها سفينة حربية .

واقتربت السفينة أكثر فتبين لنا أنها بارجة ، فقال نيدلاند :

– إذا ترك القبطان نيمو هذه البارجة تدنو منا ، فسوف أرمي بنفسي إلى الماء ، وأنصحك أن تفعل مثلي .

وفتحت فمي لأجيبه ، وإذا سحابة من الدخان الأبيض تندفع من مقدمة البارجة ، يصحبها صوت هائل ، وبعد ثوان كانت مؤخرة النوتيلوس قد انحنى فولاذها ، فصحت :

– إنها تطلق قذائفها علينا .

وقال نيدلاند :

- بارك الله فيكم يا رجال ! لقد عرفوا سر الغواصة وهم يهاجمونها .

وقلت له :

- لقد عرفوا إذن أنهم لا يهاجمون الحوت الأقرن !

وعدت بذاكرتي إلى الوقت الذي كنا فيه على متن الفرقاطة أبراهام لنكولن ، فقد أدرك الضابط فرغات أن الحوت ليس سوى غواصة ، وذلك حينما انزلق رمح نيدلاند عن سطحها الفولاذي ، فكانت قوات البحرية تطاردها في أنحاء المحيطات لكي تدمرها ، وتقتل الرجل الذي يستخدمها أداة لانتقامه ، وحين حبسنا القبطان نيمو وسط المحيط الهندي ، كان يهاجم إحدى السفن ، والرجل الذي دفنه في مقبرة المرجان قد أصيب في ذلك الهجوم .

اقتربت البارجة حتى أصبحت على مسافة ثمانمائة متر منا والقذائف تتقاطر علينا ، فصرخ نيدلاند :

- لماذا لا نشير إليهم لعلهم ينقذوننا ؟

ورفع منديله ليلوح به وإذا بيد من حديد تقبض عليها ، فرماه وصرخ به القبطان نيمو وقد احمر وجهه :

- أيها الشقي ! هل تريد أن أجعلك على رمح النوتيلوس وأهجم بها على البارجة ؟

ثم ترك يده وتوجه إلى البارجة التي ارتفع الدخان من حولها ، وهو يصيح :

- آه .. تعرفين مَن أنا أيتها البارجة ، يا بارجة الأمة الملعونة ، ولست بحاجة إلى رؤية راياتك لأعرف أصحابك .. انظري رايتي الجديدة !

ورفع القبطان راية مثل تلك التي نَصَبها على القطب الجنوبي ، ثم قال لي :

- اهبط إلى تحت أنت وصاحباك !

- لا أظنك ستهاجم البارجة !

- بلى .. سأغرقها .

- لن تفعلها !

– بل أفعلها ، ولست أنت من يحاكمني ، إنني القانون ، إنني المظلوم وهؤلاء الظالمون ، هم الذين قتلوا من أحب : قتلوا زوجتي وأولادي وأبي وأمي .. وأمامي الآن كل ما أحقد عليه .

– هذه هي البارجة التي ..

– لا تعلم إذن ؟ هذا أفضل ، لأن الأمة التي وراءها ستبقى سراً مكتوماً عنك .. اهبطوا !

وهبطنا وإذا قنبلة أخرى تسقط على الغواصة ، فارتفع صوت القبطان يصيح :

– اضربوا ما استطعتم ، فلن تفلتوا من رمح النوتيلوس ، ولن تغرقوا هنا ، بل سيكون قبركم فوق سفينة " المنتقم " ليختلط حُطامكم بحُطامها .

أقبل الليل ، وران صمت عميق على البحر ، ووقفتُ على المنصة من الساعة الثالثة حتى الخامسة دون أن يُبالي القبطان بي ، وهو يحدق في البارجة كأنما يريد أن يلتهمها بعينيه . ثم صعد مساعده ، فاتُخذت إجراءات الاستعداد

للمعركة دون أن يتوجه بالكلام إلى القبطان ، وأُسْدلت الستائر المعدنية على الواجهات الزجاجية وفوق الأضواء الكاشفة ، حتى غدت النوتيلوس كتلة من الفولاذ الأملس .

الساعة السادسة ، أبطأت النوتيلوس من سيرها ، وكأنها تستدرج البارجة إليها ، وتقاطرت القذائف عليها وانفجارها يكاد يصمّ الآذان . وقلت لصاحبيّ :

– لقد حان الأوان !

وحين فتحتُ باب المكتبة المؤدي إلى السلّم المركزي ، سمعت الغطاء الحديدي ينغلق ، واندفع نيدلاند إلى درجات السلم ، ولكن الخزانات قد امتلأت بالماء .

لن تضرب النوتيلوس البارجةَ تحت الماء ، بل فوقه .

واندفعتْ بأقصى سرعتها ، وشعرتُ بصدمة هائلة ، فصرخت فزعاً ، ثم ارتفعت أصوات الاستغاثة والحديد يتمزق . ولكن النوتيلوس استمرت في اندفاعها حتى اخترقت البارجة ومرّت عَبْرها كالإبرة تنفذ في قطعة قماش .

ولم أعد أطيق صبراً ، فاندفعت إلى القاعة الكبرى حيث وجدت القبطان صامتاً جامد الملامح ، ينظر من النافذة الزجاجية إلى الماء : كانت كتلة سوداء ضخمة ترسو في القاع ، والنوتيلوس تهبط معها ، وفجأة حدث انفجار هائل وغرقت البارجة ، ورجالها يهرولون على سطحها ، يحاول كلٌّ منهم النجاة بنفسه ، ثم انهارت وحجبت عني كل شيء .

توجه القبطان نيمو إلى غرفته ، وفتح بابها ودخل .

وتبعته بنظري فرأيت على الجدار المقابل للباب صورة امرأة شابة وولدين ، فانتزعها وضمها إلى صدره ثم انخرط في البكاء .

بدأت أحس بالرهبة والخوف من هذا الرجل الذي لا يبرر وحشيةَ انتقامه أيُّ شيء ، ولم أكن شريكه ، بل شاهداً على جريمته ، وهذا ذنبٌ عظيمٌ .

عاد النور حوالي الحادية عشرة ، وكانت النوتيلوس تجري بسرعة نحو الشمال ، ولم يعد يظهر أحد من رجالها على

السطح وكأنها تسير وحدها ، حتى فتحات التهوية كانت تُفتح وتُغلق آلياً .

لم أعد أعرف أين نحن ، وهل استمرت مسيرها المجنونة خمسة عشر يوماً أم عشرين ؟ ومتى ستتوقف ؟ وما كنت لأعرف لولا أن حلت بها كارثة وضعت حداً مفاجئاً لهذه الرحلة .

ذات صباح ، كنتُ جالساً في المكتبة وأنا أشعر بشيء من التعب ، وكدت أغفو حين جاء إليّ كونسيل ونيدلاند الذي همس لي :

– سنهرب .

فاعتدلت في جلستي وسألته :

– متى ؟

– هذه الليلة ، فالنوتيلوس بلا حراسة ، وقد لمحت عبر الضباب الأرض من ناحية الشرق .

– وما تلك الأرض ؟

– لا أدري .. وسوف نلجأ إليها مهما كانت !

- نعم يا نيد ، لنهرب حتى لو جازفنا بأرواحنا .

- البحر هائج ، ولكني لا أخشى عشرين كيلو متراً في قارب النوتيلوس ، وقد نقلتُ إليه بعض المؤونة والماء .

- سآتي معكما .. وإن متنا معاً يا نيد !

فقال نيدلاند :

- العاشرة لا يظهر القمر ، وسوف نستفيد من العتمة ، وننتظرك أنا وكونسيل عند القارب .

كنت أسمع صوت الأرغنّ يعزف عليه القبطان نيمو لحناً جنائزياً حزيناً ، ودقت الساعة العاشرة فنهضتُ بعد أن ارتديت ملابس دافئة وجعلت مذكراتي تحت قميصي . ولكني ترددت لأنه ينبغي لي أن أجتاز المكتبة ، وسوف يراني القبطان ، وقد ينتبه إليّ ، ولم أبال بالخطر ، فعبرت المكتبة ولم يلتفت إليّ إذ كان غارقاً في موسيقاه الجنائزية .

ركضت بسرعة إلى السلّم المركزي ، ووصلت إلى القارب وصحت :

- أسرعا .. أسرعا !

وأجاب الكندي :

- حالاً !

وبدأ يفك الصواميل التي تربط القارب بالغواصة ، وإذا أصوات مختلطة تصل إلينا ، فهل لاحظوا هربنا ؟

وأمسك نيدلاند خنجراً ، وهو يهمس لي :

- إنها ساعة الموت .

ولكن ترددت على سمعي كلمة واحدة عشرات المرات ، وكانت سبباً في هذا الاضطراب والهياج على متن النوتيلوس ، ولم يكونوا يبحثون عنا ، وإنما أفزعتهم كلمة :

" مايلستروم .. مايلستروم ! "

والمايلستروم اسم الإعصار الذي أطبق على النوتيلوس قرب السواحل النرويجية ، على حين كان قاربنا ما يزال مربوطاً إليها ، واقتلع الإعصار الأعشاب والصخور من قاع البحر ، وابتلعت دوامته الغواصة ولفّتها داخلها ، فقال نيدلاند :

– يجب أن نتشبث بالغواصة ونعيد شدّ الصواميل إليها .. هذه فرصتنا الوحيدة .

ولكن الإعصار انتزع القارب وقذفه كحجر المقلاع وسط الدوامة ، واصطدم رأسي بشيء صلب .. وغبت عن الوعي .

خاتمة

كيف نجا القارب من الإعصار الهائل ؟ وكيف نجونا من الدوامة العميقة وسط الأمواج ؟ لست أدري .

حين فتحت عينيّ وجدتُني في كوخ صياد من جزر (لوفوتن) ، ورأيت صاحبيّ بجانبي سالمينِ من الأذى ، فاندفعنا يعانق بعضنا بعضاً ، وانتظرت لدى هؤلاء الصيادين الطيبين مرورَ سفينة تبقلني إلى فرنسا ، وكنت أستعيد في ذاكرتي تلك الأحداث التي عشتها ، وأتساءل عما إذا كنت سأجد مَن يصدقني .

ماذا كان مصير النوتيلوس ؟ وهل نجا القبطان نيمو من الإعصار ؟

آمل ذلك ، فلعل ذلك العبقري الذي اتخذَ البحرَ موطنه يتناسى أحقاده وينصرف إلى علومه ، وتنتفع البشرية بها .

إن حياته عجيبة ولكنها عظيمة ، فقد كان يحدق بعينيه في أعماق الجحيم ، فهل أدرك معنى الحياة بعد أن نجا من الموت مرات ومرات ؟

هذا سؤال لا يعرف جوابه سوى القبطان نيمو ، وأنا ..

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني



عشرون ألف فرسخ تحت البحار

جول فيرن

RABIE